

تصير

بهنا العدد تكمل مجلة قصص مجلدها الحادى والعشرين • وبشىء من الاعتزاز تشعر أسرة نادى القصة (النادى الثقافى أبو القاسم الشاذلى) أن المسيرة النضالية التى قطعتها هذه المجلة جديرة بالوقوف عندها لا لمحاسنة النفس فذلك دين هذه المجموعة ، وانما لتؤكد من جديد تواصل العزم رغم الصعوبات والعراقيل ما دامت النظرة الى المشاريع الثقافية البحث لقيت - ومازالت تلقى - وسائل الاحباط أكثر من عوامل التشجيع • ومرد ذلك النظرة الى أهمية الثقافة كمقوم اجتماعى أساسى ، ومجرد قوى للهوية وطينا وانسانيا •

لقد دلت التجارب ان نظرنا الى الثقافة ما يزال دون المستوى ، وما يزال رقمه نازلا دون اهتمامات كثيرة أخرى •

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لقد تهاطلت خلال هذه السنة المنقضية على أسرة المجلة طلبات عدم التجديد فى الاشتراك بعللة التقشف والكبح من جماح المصاريف • وكانت الثقافة هى الجدار القصير الممكن تخطيه نظرا لضعف المنزلة التى تحتلها الثقافة فى «المجتمع» •

لقد قطعت عدة وزارات مشترياتها من مجلة قصص تقشفا فى «المصاريف الباهضة» التى يكبدها لها ذلك الاشتراك علما بأن المجلة تباع بسعر التكلفة أو أقل مما يجعل تلك المؤسسات لا تدعم قصص أبدا مهما كانت مشترياتها ، بل يمكن القول بأن المجلة هى التى تقدم دعما لتلك المؤسسات لانها لا تجنى منها ربحا ولا تريده حسبها وربحها أن تصل الى قراء وأن يتغذى منها وجدان ويسمو بها خيال •

واذا كان هذا الشأن بالنسبة للمؤسسات غير التعليمية فإن الامر يكون انكى بالنسبة للمعاهد والمدارس ، فقد لاحظنا عددا منها يتخلى عن مواصلة اشتراكه نظرا للعجز «الفادح» فى صندوق المعهد أو المدرسة . حتى اضطر المعهد الى التوقف عن تزويد مكتبته ، بل مكتبة التلاميذ والاساتذة ، بالمجلة لان المعهد أصبح عاجزا عن دفع ثلاثة أو ستة دنائير فى السنة ! نعم هذا هو الواقع .
 دما يجعلنا نتساءل : هل صحيح أن المجلة كانت توضح على ذمة المراجعين من تلاميذ وأساتذة ؟ . قد يبعد تصورنا لذلك اللهم الا اذا كانوا هم عازفين عن مطالعتها . واذا ذاك يكون الاجدى أن نصارح بذلك حتى نعرف « قدرنا » .

وأقد اكتشفنا أن للامزجة دخلا فى ذلك ؛ فبعد «القطع» نكتشف أن تغييرا حصل فى الادارة وأن مزاج الخلف غير مزاج السلف . وتصبح القضية اذاك قضية شهوات شخصية ولا يهم أمر القراء والمراجعين ، ولا يهم بتر المكتبة فى خلية من خلاياها ولكن نحمد الله على قلة هذا النمط من الامزجة فالبقية وهى الاكثر سليمة والحمد لله .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وليعلم المطلعون على هذا التصدير أننا نقول ذلك بكل صراحة ودون خلفيات، لان مجلة قصص مشروع ثقافى بحت يقوم على التطوع ونشر المعرفة من أجل المعرفة ، ولهذا فإن العاملين فيه يبذلون ويدفعون ولا يقبضون الا رضى الضمير، وسعادة القيام بالواجب . ولهذا واصلوا المسيرة طيلة هذه المنة . والله المعين .

قصص

موجة من دخان

وأنت تسير في الشوارع تتأمل الوجوه تبحث عن أجملها ليوحى لك فكرك بأنها هي من تبحث عنها وتلدوس الأرض من أجل أن تعثر عليها لكنك لا تقدر على الاقتراب وتود التحدث اليها أو تهتم ، فأنت تبحث عن حسناء واحدة بأوصاف محددة رسمها من حديثك . فكيف تقبض على سمكة في بحر ؟ فالمدينة ملأى بالحسان فهل تستوقفهن جميعا ؟ تستجوب كل واحدة لتسألها عن اسمها ، وماذا يفيدك لو فعلت وأنت لا تملك غير صورة رسمتها في خيالك ، وتعاونت كل غرائذك على نحتها وألغيت كل الاوهام التي أراد أصحابك أن يقذفوها في ادراكك ، وقلت : حتى لو كانت حقائق ، فهي واهية . وكنت صدقت المزاعم وركضت وراءها زمنا . وها انك تحرر أفكارك من سلطة التحولات وأنت تحول الغليون من شديقك الايمن الى الايسر . تظن انك اخترعت العالم . تستشير الغليون ، ومن خلال دخانه تنفث أفكارك .

المستحيل كلمة صنعها العاجزون ليستتروا وراء خمولهم ، فقد خلق الله العالم بكله مرة واحدة . ما اكتشف الآن كان موجودا ، وما سوف يكون هو موجود الآن . ولكن ليست عقول الامس كعقول اليوم ، ولا عقول اليوم كالتي سوف تكون .

كل المشاكل صنعت ولها مفاتيح في عقل الانسان ، طبق نظرياتك على واقعك ها انك تصطدم بالعجز فتصبح أفكارك معاقة ، وما بلغت بعد تلك المرحلة التي تتطلب فكرا . فهل ان مشكلتك صنعت بدون حل ؟ هل أضعت أنت المفتاح ؟ انه العجز الذي أنكرته على الناس يصيبك فتثبت في عجزك ! فطالما تمعنت بتثبت في عجز الآخرين .

وأنت تستجدي المدينة وقد ملت أرضها وقع حوافرك . تاكلت نعالك ولم يرحمك حر الشمس . ولا أشفقت عليك السحب فأنت بين الحر والقر تسير .

ولأنك مجهول تبحث عن مجهول ، وحيدا على الطوار ، والناس على طوار آخر .

وتبقى أنت المتكلم والسامع فالحديث الباطني مرض نفسي يدعى الكتمان .

لقد كان أبوك يتقن كل ما يصنعه الانسان ، ولكن بالكلمات فقط ، يده في لسانه ، وهو أعجز من أن يبرى قلما ، أو يضع طوقا في رقبة كلب . وعذره أنه كان أميا يضحك الناس بتفاهة الادعاء ، فهل تكون أنت الاضحوكة المتعلمة وبماذا يمكنك أن تعتذر ؟ ان مزج العلم بالجهل من اكبر قضايا الاجرام لو تدرك الآن فقط أدركت خطئي ولعنت نفسي التي سولت لي أن أصنع من الوهم صنما يعبد به صاحبي ، وحتى يوم كشفته له ظل في عبادته آمينا فلو كنت أعلم أن صديقي حسان سيعلق عمره على غصن من شجرة الوهم ويتيه بعدهما في الضلال لرضيت بكل الم يتجول في الدنيا كي يتحول الى ، وما أصيب بالذي هو فيه الآن .

نواياي حسنة والرب شاهد ، فقد كنت في حالة من الالم والقلق طريق الفراش ومالي من علة . فما أنا بالمريض ، ولكنني لست بعافية فانا طالب أسكن بيتنا صغيرا في حارة عتيقة يقاسمني شاب تخرج من الزيتونة لكنه ركض طول الوقت وراء البحث عن عمل فالبطالة أرهقته حتى أطلق على نفسه لقب تاجر . وتحول الى الاسواق فلا يعرف غيره ما يصنع هناك ، على أنه لن يعود الى البيت الا في فترات وقد يطول غيابه .

أتمدد طول الوقت على الفراش . أفتح الكتب فلا أقدر على غير تصفحها . وهذا الطقس يعاكسني . وأستعرض أسماء الاصدقاء فلا أجد أني خطرت على بال أحدهم . فهل أكون سقطت من ذاكرة الجميع ، أبكى مرات وأعود الى أمي وخيال اخوتي وأهلي .

فاحس أني أضال من نملة ، فاعترف بحقارتى . وأعرف أني محتاج الى كلمة قد تزيل ما بي ، وما ان وصلت يوما الى ذرف الدمع حتى سمعت طرقا على الباب . تحاملت على نفسي وقمت أفتحه لهذا الطارق الذي مهما يكن شكله ونوع المهمة التي جاء من أجلها فانني سأستبقيه سأترجاه واستعطفه ان لزم الامر كي

يبقى بعض الوقت الى جانبى يحدثنى عن المدينة والناس والاخبار ، فمرحبا به مهما كانت مهمته حتى لو جاء يدعونى لمحاكمة ، وقبل أن أفتح الباب شممت رائحة التبغ انه أبو الاقتاز يا لفرحتي . لقد أحسست انني قبضت على نصف المرض . نعم صدق ظني فتحت الباب فاذا الغليون يتقدم صاحبه ، انه صديقي الذى يعتبر أن الناس ما زالوا يعيشون فى العصر الحجري - عدا هو طبعا - فهو لا يؤمن بغير أفكاره - ولست أدري من أين ابتدعها - انا ورفاقي ندعوه بالضال وغيرنا يطلق عليه من باب السخرية الفيلسوف الابق .

انه الكبرياء يمشي متندا ينفث الدخان . كان قدرا مهايا فهو جسور لا يصده عن المهاجمة رادع . وفر له أهله كل أسباب الرفاه فهو ينفق عن سعة يرتاد الاماكن الفخمة التى تغازلها اعيننا نحن عن بعد .

نقطة الضعف فيه أن أهله الزموة بالانضمام الى طالب من قرابة أمه يسكن معه فى مدرسة لسكنى طلبة الزيتونة . وهى تكون مجتمعا متساوى الحلقات تقريبا ، فلن تفرق بين أبناء الاغنياء والفقراء ، فكلهم يقومون بشؤونهم المنزلية يطبخون أكلهم . ويفسلون ملابسهم ، وينظفون بيوتهم . تدخل اليهم فى منتصف النهار ، فترى أمام كل بيت « تنور بترول » يشخر وعليه قدر يطير بخاره ، فتشم رائحة البصل ، والخضار ، والثوم ، هذا يقطع البصل ، وذلك يمسح أرضية البيت ، وثالث يغسل الملابس ، فى غير يوم الجمعة فهو يوم عطلتهم لذلك يكون صباح هذا اليوم مخصصا للحمام ، ومنتصف النهار للطبخ وغسل الملابس ، والمساء للنزهة والزيارات لمن يسكنون منهم فى مدارس أخرى ، وهى منتشرة فى العاصمة وان كان أغلبها فى المدينة وحول جامع الزيتونة حيث يدرسون . ان حسان صاحبي يخجل من الانتساب الى هذا السلك . ويتبرأ من السكن هناك . فهو يتابع دروسه فى كلية أجنبية ورغم أن زملاءه يحسبونه بأنه انما وجد عفوا وأنه ظاهرة ليس لها مبرر فانه يزيد اصرارا على التعلق بهم ، هم ينبذونه وهو يدافع عنهم يخلق لهم الاعذار فى تصرفات أهله .

تحكي أمه عن غرابة طبعه . فهو لا يأكل الا متقرزا . أنكر كل أواني البيت واستهجن أن يكون أكلهم طبخ فى قدر قدر وانهم يتناولونه بأيديهم من قصعة

يجتمعون حولها . ألزمهم بالتفرق والانفراد كل بصحفة . أجبرهم على الأكل بالملاعق والشوك ، ولما أراد أن تمتد كلماته الى الملابس والفراش وجد إباء القدرة على كبحه ، فأسمعه كلاما لم يتعود سماعه قبل الآن .

– إن كنت تحسب أن هذا الذى أرسلتك لتتعلمه ، فبئس ما فعلت بك وبنفسى . كن كما شئت فلن تكون الا كما كنا . . . وإذا اتيت الى هنا . فاعلم انك ستكون كما كنت رغما عنك ، وعمن لقنك هذا الاغتراب ، أنا أرسلتك كي تتعلم ما يرسخ قدمك فى أرضك أرض الآباء والاجداد وانت تعلمت ما يرسخ قدما أخرى أجنبية فى هذه الارض ، أنا أقدر الناس على التحكم فى هذا العالم . أو كنت قد تعلمت حرفا فانا أقدر أن أصنع من الارض اشخاصا مثلك فى غباوتك بل واكثر منك غباء ، فتحت قلبي والباب لحسان ضمته الى صدرى ، وانتابتني فرحة بحارة كريستوف لما شاهدوا اليايسة ، جلست على الفراش وعلاودنى بعض النشاط فكان المرض أمهلنى .

– مرحبا بك يا أبا الاقناز ، هذا القلب الذى نطلقه عليه منذ كنا بالمدسة الابتدائية ووراءه قصة طريقة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

– كيف الاحوال ، أcriب أنت من الدنيا أم من الأخرى . والله ما كنت أظن أن مثلك يقدر عليه المرض ويصيبه .

– أأست مثل كل البشر . عرضة لكل ما يمكن أن يصيب الانسان .

– المرض حالة متخلفة ، يذهب اليها الانسان بنفسه . يدفع اليها نفسه وجسمه ، تجلسون حيثما أأفق ، تأكلون أى شىء دون تحر ، تخالطون الناس دون تمحص ، تلقون بأنفسكم الى الهاوية ثم تطلبون من الله أن يتلقفكم .
– ها انك بدأت الحرب وأنت المغرم بائارتها .

– وهل تتركون للانسان وقتا كي يبدأ ، فأنتم تصدرون أحكامكم منذ البداية ثم تنشرون الفوضى تحسبونها نصرا ، والله لو كنت أقدر عليكم لما أرسلت بكم الى غير قرى النمل تتربصون على ممارسة النظام هناك ، شريطة أن يقبل النمل بهذه الصفقة التى قد تفسد عليه حياته .

انخرط أبو الاقناز فى نوبة من هذيانه المعهود . وددت أنها تطول أكثر .
وأن تعاوده مرات . انه صديقى وأنيىس وحدتى فليقل ما يشاء ، فليس من أحد
يسمعه غيرى وأنا لن أشير به مهما أغلظ .

ترك أبو الاقناز غليونيه نسيه بعد انصرافه عاودنى الصداق ، ولكننى علمت
أنه سيعود ، فليس من عادته أن يتحرك وليس بين فكليه الغليون فهو أكثر من
نصفه . وخطرت ببالي خطة أصيد بها حسان اذا عاد ، تلزمه بالبقاء الى جانبى،
وتصورت أبا الاقناز دون غليون ، فكيف يمكن ان يتصرف فهو لا يقدر على
الكلام الا وهو يعضه بين أنيابه .

وقد صدق حدسى . ها هو الباب يطرق ثم يفتح . لقد تركه بنفسه مفتوحا
وعندما سألنى من ترك الباب مفتوحا اكتملت خطتى .

دخل حسان ملهوفاً يسأل :

– هل هو هنا ؟ لقد فقدت الغليون نسيته هناك طبعاً .

– انظر إنه حيث تركته . ثم غيرت من لهجتي واجتهدت فى أن أكون جادا
أكثر مما يلزم .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

– يظهر أنك اغتنمت ضعفى ومرضى لتجعل منى أبلها .

– ماذا أصابك . أو تظن أنى قادر على ذلك ومعك أنت بالذات هل أفقدك
المرض وعيك .

قلت بأسى ظاهر استدر عطفه :

– وما معنى أن تخفى عنى أشياء كبيرة كهذه لقد نسيته المهم . وما الغليون
إلا تعلقة لذلك .

– أنا قال أبو الاقناز حسان ، لقد دخلت بي الى عالم الاحاجي ، وعندك ألف
حق فأنت مريض والصور لا تغيب عن عقلك . فالمرضى أكثر غوصاً فى الحيال
من الأصحاء .

قلت : هل رآك أحد وأنت تدخل على ؟

– وماذا يعنى ؟

- فما قصة الفتاة التي أتت إثر خروجك تسأل عنك .. ثم تستوضح عن أشياء تخص حياتك .

- عني أنا ! وعن حياتي !

- تجاهل ما شئت . يا للرب كم هي جميلة ومهذبة !؟

لقد كانت تنطق باسمك وكأنما تتغنى نغما .

- من ترى تكون هذه الفتاة .

- أسأل نفسك التي طاوعتك على مراوغتي فإذا الاقدار تفضحك .

وأراد حسان أن يدافع عن نفسه فلاول مرة يقف هذا الموقف الدفاعي . ولكنني لم أترك له الفرصة وهو في لحظة ضعف فقلت :

- انها فتاة وأى فتاة !! جمال واي جمال !! انها ارتفاع لا تصل اليه الايدي القصيرة .

صبت حسان يفكر . وتعهدت أن أستعمل كل صيغ التعجب وبين الحين والآخر أتعمد قطع سلسلة تفكيره ، فألقي اليه بسؤال يفرقه في الحيرة ، أو أزيد وصفا جماليا لهذه الفتاة التي كشفت عن وجه لربة جمال هربت من الأساطير .

وأنا أتحدث ، وهو يقرب أذنه من فمي ، وقد تراخى فكاه فأصبح غير قادر على تحمل ثقل الغليون فحوله الى يده ، وعلق نظره بسقف الغرفة وحدث نفسه :

- أنا لا أعرف فتاة بهذه الاوصاف ، بل أنا ما تعرفت على أى فتاة منذ قدمت المدينة ، قد تكون ..

- قد تكون هي على علم بك دون أن تشعرك .

- وماذا تتكهن أنت عن سبب قدومها المفاجيء .

- الامر بسيط تريدها أن تقتحم عليك البيت هناك ومئات العيون الفضولية ترصدها حسن أن تفاجئك وأنت تقطع البصل أو تحشو التنور بالهواء وأولائك

المكبوتون من حولك سوف تعم ثورة ، انها تعرف عنك كل شيء ، تعرف صداقتنا ، وتعرفت على بيتي من خلال زيارتك المتكررة اليه .

– كفى قال حسان : لقد لاحظت فى مناسبات عديدة أن عيون شابة تلاحقنى من خلال حواجز الحمار .

لقد كنت أحمق أعبد الكلمات أمارس الطقوس فى الكتب .

– ولكن الحياة ليست كتابا فحسب .

– دعنا من الفكر الآن ، وابحث معى عن طريقة عملية تمكننى من صيد هذا الغزال .

– قلت : افعل ان شاء الله . ولكن متى بان خيط من الحقيقة .

رابط صديقي الى جانبي ينتظر الاكذوبة ، فكان يمضى أكثر وقته صحبتى، فإذا ما اضطر للخروج لقضاء بعض شؤونه ابعث فيه بعد عودته شحنة أخرى من الزيف .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

– ما أتعس الحظ الذى يرافك اليوم الم تلتق بها . لقد ظننت أنكما .. يا للعجب أنت تغادر وهى تحل مكانك .

– ألم تتعرف حتى على الاسم . أسألتها أين تسكن ؟ وحضرني أول اسم وجد على لساني ، فقلت اسمها شامة . هكذا قالت ولم تفصح عن عنوانها فقد قالت : لم يحن الوقت بعد .. استمرت اللعبة . ففى كل مرة يغيب هو أزعم أنها جاءت . وهو يصدق كل ذلك . يغيب هو فتعود هى للظهور . وكنت أظن أنه سوف يمل اللعبة فينفض يديه وينفض عن متابعتها .. كنت أظن أنه فهم ما أريده منه لكنه يزداد حماسا وتعلقا بهذا الخيال الذى صنعتبه أنا من كلمات ورسمه هو فى عقله صورة لكائن محبوب .

الحق أن حسان ، أعني وهم حسان خفف عني محنة المرض واختصر مدته فتوكت على البرء وقمت معا فى اواصل دراستى وأهملها حسان .

الحيرة الكبرى كيف أعزل حسان عن أفكاره هل أكشفه أم أتركه وأنا الذى اغريته بانتظار مجهول لن يكون أبدا . تخلصت من قيود المرض ، ولكن كيف أخلص حسان من ورطة القيته فيها بيدي ؟!

أتركه وحده فى البيت ، أسأله ان كان سيذهب الى كليته لا اتلقى منه جوابا ، كلمته الوحيدة .

- أنا أعرف طريقى جيدا ، ولست بحاجة الى مرشد فى اليوم الاول عدت فوجدته يتمشى داخل البيت وهو يتحدث حتى ظننت أن أحدا يجالسه . لكنه كان وحده يحدث نفسه . سألته .

- هل أتى أحد غيرى ؟

- كلا . لقد سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فقامت أفتحه وما وجدت الطارق برغم أننى شممت رائحة عطر من نوع رفيع .

- لعلك تباطأت

- الحق أن ذلك وقع . فقد أصابنى شلل مفاجئ ، وما قدرت على التحكم فى أطرافى .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- قلت مداعبا : الطرق على أبواب القلوب ذاك هو الحب .

ظل أبو الاقناز مرابطا لا يبرح ، فاضجرني نوح الضمير . لقد كانت لعبة سمجة لا تصدر الا عن أنانى أحق يربط صديقه بسلسلة من عذاب ويتركه على باب الوهم مصلوبا .

قررت أن أكشفه ، وليقع المحضور .

وظفقت أحاوره ، والأطفه ، وأذكره بكل المواقف التى عايشناها وأراجعها واحدا فواحدا لأكسب ثقته من جديد ، ومازلت ألينه حتى زحزحته عن موقعه ، ولكنه قال لى أخيرا :

- لقد استمعت إليك بأكثر مما كنت تتصور ، وتركك تنسج الأكاذيب ، فخيالك أنا العارف بسرعه عند ما ينطلق . عد بنا الى شامة الآن اذا كنت تريدني راضيا عنك أحضر لى شامة ، اجمعني بها حتى لو استعنت على ذلك

بسوء الأدب أو حتى العنف جرب قدرتك إن كنت صديقي . واحترت : هل أعده ؟ هل أنا قادر على نحت الحقيقة من خيال ؟ وهل وقع ذلك من قبل وفعله غيري ؟ وكل ما أعرفه أن الخيال يصنع في كل مكان وزمان . لكن الحقيقة لا يمكن أن تصنع كذلك .

ولكني أرغمت نفسي على قول : نعم : لك علي أن أفعل ذلك . قال صديقي ، وهو يعانقني ويرص شفتيه على جيبني :

– كل هذا ما أطمح اليه . ذاك أمل حياتي .

وقلت أخفف منه بالمزاح :

– ولكنك لو تعرفت عليها فرأيتها .

فقاطعني : أوه ! لقد تعرفت عليها . رأيته مرات كثيرة هي لا تفارقني ، انها تسكن داخل أفكاري ، وظيفها يرافقني أني تنقلت ويناجيني ، أليس هذا بكاف؟ قلت أجاريه : ليس أوثق من تعاقب الأرواح .

وقلت أغير الحديث لاتفادي ما قد يطرأ على عقله بأن يطلب تحديد يوم اللقاء فقلت :

– تذكر يا أبا الاقناز يوم أطلقنا عليك هذا اللقب وكنيناك به .

– لقد كدت أنسى كل شيء يا صديقي .

وهذه لكنية تحصل عليها منذ المدرسة الابتدائية ، فقد كنا في الفصل ودرس القراءة « الاقزام الثلاثة » ولما وصل دور القراءة اليه : اضطرب فقال الأقناز ، فالتقطناها نحن الرفاق ، وبقيت معه حتى المدرسة الثانوية حيث تحصل على لقب الشعب : وعرف به ونزعه عنه يوم دخل الجامعة فقد أصبح يدعى « المايسترو » لما كان يأتي به من حركات وهو يتحدث فكانما هو يقود أركسترا ، ولقد أغفل لقبه الاصلى وبقي نائما في السجلات الرسمية .

وقطع حسان الصمت الوجيز .

- حتى لقد وصلتني رسالة من البلد وما اعتنيت بفتحها فسألته عن حقيقة ما يشاع عندنا هناك من أن فلانة هربت مع عشيقها فلان ...
فصك وجهه ، وأغضى ، وهو يتمتم :

- يقضون حياتهم يغطون في النوم ، ثم يموتون وما قضوا وطرا ، يستولى عليهم . على عقولهم من يشاء . دعنى من هؤلاء فلقد مللت النظر اليهم . حادثنى عن شامة ، وابعث معى عن طريق توصل اليها الا ترى أننى أكاد أموت عشقا قال ذلك وبرقت فى عينيه دموع فرايت انسانا يتمرغ فى الحضيض وينتهى الى أوهى درجات الضعف ، وكان من حقى أنا أيضا أن أبكى ، او ليس البكاء محطة للراحة من عناد العمر . كنت أولى منه بالبكاء وأنا الذى أيقظت هذه الكارثة فى صدر صديق العمر . أدخلته بحماقتى فى قمقم العذاب ، مزقته بأنانيتى الى قطع غير صالحة للاستعمال حتى لم يعد جزء منها يشبه الآخر ، جذبته بغباوتي الى الاحباط المزيد ، كركته مغلقا بين الوهم والجنون وارتخت أفكاره عن المبادئ التى كان يتحمس لنشرها بين الاقران ، فأين حسان الذى كان يقول :

لو بقى فى العالم مضطهد واحد لوجدنى الى جانبه أقاسمه ما يقاسى وأدافع عنه ، ولو امتلأ العالم بالمضطهدين لوقفت فى وجوههم لابطل ما يفعلون .
ها هو الشعب يسقط ضحية الاضطهاد المجانى ولم يكن الى جانبه غيره .

- اسمع : قال الشعب : أقول لآخر مرة ، إنك اذا لم تتحرك وترتب لقائى بشامة إذن لألزم نفسي بالبحث عنها سأطرق كل أبواب الديار ، سوف أطرقها ولا أهمل بابا واحدا . سأجعل من المدينة لعبة ، سأسخر كل الوسائل الأخرى إذا ما فشلت هذه الخطة ، سألتجئ الى كل الوسائل حتى المستهجن منها أو العبثى ، فالغاية يسخر لها كل الوسائل .

- إنك تجهد نفسك ، لو كنت مكانك لكثت حيث أنا ، أليست هى التى سألت عنك أولا ، دع لها الحرية كى تتعذب أليست تحبك .

ورد حسان : لو مكثت هكذا أحاورك لأخمدت جذوة حبي ، أنا أقول كلمة وليس لها غير مدلول واحد « ان لم تجمعنى بها اقتلك ! » .

- تقتلني أنا صديقك يا أبا الاقناز .

- نعم : رد حسان : ومن غيرك اذن ، لقد كدت أتيقن أنك تحجبها عني لتستأثر أنت بحبها .

أنا أعرف أن أبا الاقناز متهور لم يتخل يوما عن غلظة ورثها ، ولكنها يلفها بأوراق الثقافة يلونها بالحضارة انه لن يحجم عن تنفيذ أى حماقة توحى بها غطرسته غير ناظر الى عواقبها ، وقلت :

- خير أن يفعلها مع نفسه من أن يرتكبها فى شخصي فاستوحيت خطة اختبىء وراءها واستتر . دعوت الرفاق لضيافة فى بيتى وكان حسان أولهم طبعاً ، وفى وقت حددته طرقت شامة الباب فقام حسان يفتحه بنفسه فاذا هو يصعق ويستنجد بى .

- لا تخش على نفسك - قلت اطمئن - انها شامة ، أليس هذا ما طلبته منى لقد تركنا أبا الاقناز وذهب الى بيت الراحة . وعاد بملامح أخرى فكانما التقطها من هناك أو أن مكروها اعترض طريقه فأصابه . لكنه عاد الى نفسه فاذا هو ينطلق من هنا الى عوالم الخيال . واذا هو يقرأ روائع ابن الفارض ، وينتهى الى الشابى يترنم بقصائد الحب وأغاني العاشقين .

كانت شامة يحويها اللحاف الابيض فلا تظهر الا العينان السوداوان وخصلات الشعر المتدلية على الجبين ، وقد سبقتها رائحة العطر تبشر بقدمها سلمت بكلمات مقتضبة منتقاة من قاموس الآداب مما جعل احسان يحتاج لترجمتها . وقد خدعه سمعه وفقد كل حواسه ، ثم اعتذرت لحسان وحده فهي لا تقدر على أن تكشف وجهها ولا شخصها فى الوقت الحاضر على الاقل لاسباب لم يحن بعد وقت طلب ايضاحها ، وطلبت اخيراً أن لا يعاب عليها هذا التصرف الذى تقوده الظروف . وهمست فى أذن حسان بكلمات لم يقدر وجه حسان عن كتمانها فقد مرت موجات من اللون الاحمر ثم تلتها تموجات بيضاء تقرب من الاصفرار واخيراً وهى تغادر رتبت على خده وهى تقول :

- انها أنت الشعب بحق ، سوف أخلق الفرص ليتجدد اللقاء ولو بدون حضور الاخوة المحترمين .

تمدد أبو الاقناز على الفراش وأصدر تنهيدة عميقة وشخر حتى ظننت أنه يموت ، ثم سألتني :

- من هؤلاء الذين تسلطوا على مجلسنا الليلة بالذات ؟

قلت اعتذر :

- إنهم اخوة من كلية الحقوق قلموا لأمر ذى بال لكنك وشامتك هذه غيرتما لون الجلسة .

لقد كانت الخطوة الثانية فى التضليل ، كل شىء مزيف فشهاب أصبح شامة وقام بدور المرأة الاكنوبة فلو اكتشف أبو الاقناز اللعبة لما تردد فى أن يقوم بعمل منكر . فما شامة الا دور فى تمثيلية قام به الصديق شهاب ولأنه فتى جميل الطلعة فقد نجح فى تمثيل دوره وأبهرنى أنا نفسى . وهكذا برأت ساحتى فقد أصبحت شامة أمرا واقعا فى حياة صديقى حسان ، بدليل أنه سألنى عنها مرة فقلت أنه زاجرا :

- اسمع أنت يا شعب ، أنصحك أن لا تسألنى مرة أخرى عن هذه الشامة لقد أصبحت تعرفها أكثر منى ، لقد همست فى أذنك وما أظن الا أنكما تدبران مؤامرة .

- لقد كانت كلمات الحب التى تقطر حلاوة .

قالها وهو يضحك وأردف .

سوف ابقى تلميذك حتى آخر الدنيا تجدنى خلفك .

- لقد اجتمعت بها وهناك وقفت قدرتى ، لم لم تطلب منها موعدا ؟ لم لم تتبع آثارها حتى تحدد وجهتها والمكان ؟ ما ذنبى أنا أتحمل أتعاب حبك وقد فرطت أنت فيه .

لقد كنت أهددك بالقتل تندرا فها انك تريدنى أن أقتل نفسى وأنا جاد . لقد كنت تشاهدنى وأنا أتخبط لا أقدر على الكلام فلم لم تنجدنى أنا صديق الصبى والدرب ، لماذا لم تفعل أى شىء نيابة عنى .

يا أبا الاقناز أنت تشك قبلا في إنني أسعى لصدها عن حبك والاستئثار بها
دونك فلو قلت كلمة أنوب عنك كما تطلب لما ترددت في قتلي بالفعل .

طالت غيبة شهاب الذى سافر لبلده ، وكثر الحاح حسان في أن يرى شامته
فمن يحل المعادلة .

لن يعود شهاب قريبا وليس غيره بقادر على أن يكون شامة ، ازداد عناد
حسان وعظمت بلواه وقد اقترب من الجنون أو كاد . مما جعلنى أحس بثقل ما
أصيب به صديقى ، انتابني الندم وأصبحت حالتى مرتبطة بالنى عليها
صديقى ، خصوصا وقد أخذه الاخوان على انه ملهاة وكان يتفكهون وهو يتحدث
عن شامة وعن حبها له وهم يتغامزون ثم يضجون بالضحك بعده ، كان
لابد أن أجد سببا لانقاذه ، بل لانقاذ نفسي مما أصبحت أعانيه .

قلت له : ان شامة تأتى الليلة ، فكاد يصعق وماتماسك إلا حينما أسندته
وأنا أجفف دموعه وقد اختلطت في منديلى بدموعى . هو يتحدث ويتمرن على
الكلمات الحلوة يقولها في حضرتها وينتقي الجمل يكررها وقد غطى الوسادة
باللحاف يتمتلها شامة وأنا أتخبط في بحار الشك ، فهل أقدر على تخليص
أبى الاقناز من هذه الشبكة الوهمية والتي أوقعته فيها بيدي ، لم تأت شامة
ليلتها : وهو أمر طبيعى فهي خطة رسمتها وأعرف أن فيها قسوة وخيبة مرة
لحسان ولكنها عملية جراحية يجب أن تتم ، وما من شفاء يكون عن طريق
الصدف . لقد أصاب حسان تلك الليلة ألم حتى انتهى الى حمى وهذيان . فى
صباح اليوم تلقى رسالة - دبرت أمر كتابتها - وفيها تعتذر شامة عن طول
الغيبة وتأسف لأن مرضا عاجلها عاقها عن الخروج وهى الآن تترقب رأى
الطبيب .

- جاءني حسان باكيا أخرج الرسالة من ثنايا ثيابه .

- إنها تموت أنظر ماذا يمكن أن يكون هذا المرض الذى اعترض طريقها إلي .
قلت أترج به الى مرتبة اليأس : قد يكون مرضا .. هذا الذى وقف الطبيب
أمامه لا يحرك علمه ، من الامراض المستعصية ..

وضع حسان يده على فمى يسكتنى وبكى .

- قلت وقد أشفقت عليه : نحن لا نعرف شيئاً فلننتظر .

وكان حسان كان نائماً فما سمع ما اقول وكأنه يحلم .

- لو ماتت شامة ! فهل يبقى وجود ؟

وكانما أفاق فجأة فارتمى يعانقنى ويتصاعد نشيجه :

- هل تظن أنها تموت ؟ وهل يقدر الموت على اختطافها منى ؟ لو فعل ذلك لذهبت اليه بنفسى أنازعه . فأنا لا أخشى الموت ، ولكن ليترك شامة ، لا لن تموت شامة ايها الموت ، انا اقول ذلك ، لن تموت ، لن تموت . لقد أصبحت أكثر عذاباً من حسان نفسه ، ضاقت نفسى بكل شىء ، كثر الصخب بينى وبينه ، نلتقى فتعلو الاصوات يحملني التبعة ، وأنا أتبرأ ، أتهمه بالجنون فيرمينى بالحسد . الكلمات أصبحت مرة المذاق أمسى لها طعم غير مستساغ انعدم الصفاء ، وكم حاولت أن أبني معابر على الهوة فإذا حسان يخربها . ما التقينا الا وكان الفراق عاصفا . هو يريدنى أن أجمعه بفتاته التى أحبها . وأنا لا أملك غير أوصافها التى لفقتها من كذبة بيضاء ، قلت أتحمل صلفه حتى أمهد لكذبة اخرى تقتل الاولى ولا بد أدن من البحث عن ذاء فتاك يأتى على شامة فيذهب بهذه الفتاة الاكذوبة والتى كدت أنا نفسى أقتنع بوجودها والا فانه سيكون من الصعب أن يقتال الانسان خيالا فيقتله .

وجاءت الرسالة الثانية وتقبلها حسان كأنها أرسلت اليه من السماء . جاء حسان وكل جيوش الخيبة تتقدمه ، مديده بالرسالة وهو يقول :

- لقد انتهيت ، انتهى كل شىء جميل فى هذا العالم ، انتهى العالم ، اقرأ « يا حبى الكبير ، يا حبى الذى كنت فخورة به وشامخة بين بنات حواء ، يا ومضة العمر ، يا سيد شباب العصر ، لقد عشقت فكرك ، ثم عشقتك أنت بعد ذلك ، لقد فتنتنى على غير دراية منك ، يوم رأيتك تعرفت على الدنيا والحب والفرحة من خلالك .

ولقد ظننت ان الحياة ضحكت لى فجعلتك فرحة فى طريقى . ولكن للأسف ان ضحكها كان سخرية فمرضى الذى ظن الاطباء انهم قادرون على قهره

هرب من بين ايديهم فهو يعبت بى وليس لهم الا الفرجة ، لم يكشف لى اهلى
ولا الحكماء ولكن علب الدواء هى التى أشعرتنى بأن مرضى فاتك واننى ذاهبة،
اننى انتظر مصيرى بشجاعة ولكن ما يحرقنى أن اغادر الدنيا ولم أحقق رغبة
كنت أذهب راضية لو حققتها ، أرجوك أن تنسى أنك عرفت فتاة باسمى وكن
لنفسك فانت أولى لها من كل الناس . التى تموت وفى عينيها خيالك ش. ك.

يومها من جنونه ، كان يوما عسيرا ، لكنى تصرفت بكل عقلي كى لا أصاب
بلظى حزنه فلعل حماقة تصدر عنه فأكون أنا الشاهد عليها أو المسؤول ،
قلت له :

- لو كنت مكانك لذهبت أبحث عنها في .

- أين أبحث عنها ؟ قل .. تكلم »

- قلت : هيا معي وأنا أدلك .

وخرجنا وفى الطريق سألتنى .

- أين تذهب بى ؟

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فقلت متجاهلا :

- لقد فكرت أن أسأل عنها بعض الرفاق فهم يعملون فى المستشفيات .

- أنت تهزء بى !

قالها أبو الاقناز وانصرف بعد أن نظر إلى شزرا وزاد : كذاب ، ومراوغ ،
تف عليك بعد الآن .

وأنت تترقب ميتا تقضى كل وقتك بين القبور .

وتسأل عن كل من يدفن ، عن الاسم والمكان حيث كان ، تفترض أن شامة
تموت ، فكيف توارى فى غيابك ! كيف !! الا تستحق منك دومة تودعها بها .
كنت تقنع بأن ترى الجسد المسجى قبل أن يضع عليه حفار القبور الاثقال .
كنت تحدث نفسك تلزمها بالصبر توصيها وتحذرهما من افتعال الفضيحة .

فلو اكتشفت أحزانك ماذا يقول أهلها والناس المشيعون سيتهمونها حين لا تقدر على دفاع .. دعها تلج العالم الآخر وليس من ورائها ضوضاء شغلت بالموتى عن الحياة ، تحولت متعتك من مطالعة الكتب الى التأمل فى اللوحات التى تشهد على الموتى وطول المسافة التى قطعوها هنا فى الحياة وتترك خيالك يصور الاشخاص وما قد يكونون قاموا به أو تركوه وراءهم . وها إنك عرفت الآن أى فرق بين ما يقرؤه الانسان وما يصادفه ، وعرفت أيضا كيف تمنح للمجانين أعذارهم . وعرفت أشياء ليس فى مقدورك أن تترجمها الى لغة لم يبق من حسان غير غليونته ، هدأت ثورته . تحدثه فلا يظهر الاهتمام بما يصدر عنك . فقط ليس على باب عينيه حاجب يردع دموعه ، انقلب حسان من أعلاه الى أسفله ، صرف الاهتمام عن كل شىء . ترك الدراسة ، تخلى عن بورجوازيته - حتى الاناقة التى كانت هوايته أهملها . رهفت نفسه حتى لم يعد يطبق نظرات الناس . حتى وان قطع صلته بكل الناس فقد ظلت متواصلة معى ، لم يعد يحدثنى عن شامة . هل نسيها ؟ إذن ماذا أصابه حتى ينتهى حاله الى ما هو عليه ، لكنه كان يتكلم كثيرا عن الموت ، كل كتاب يحمله ليس له موضوع غير الموت .

يتحدث يسأل ثم يجيب نفسه بكلام يحتمل أن يكون هديانا .

وقد يكون حقيقة ما اعتقده ، الذى استنبطته أن حسان أصبح يعيش مشكلة باطنية ، فهل أقدر يوما على الوصول اليها واكتشافها ، أم أنني ربما جلبت له شقاء أعمق مما كنت دفعته اليه وقد صنعته كذبة بريئة .

قلت له وقد استجمعت كل شجاعتي .

- يا حسان يا صديقى . آسف أن ..

- قل لماذا التردد . فأنا لم يعد يهمنى ما يقال كل الكلام هذر .

- قلت : ليس كل كلام هذرا . وأخشى أن استدعى لك حزنا فكلامي ...

- قل ما تشاء حتى لو قلت انك ستنزاع مني الروح لما جزعت .

فقلت ، وأنا احس بحزن يفاجئنى ، حزن حقيقى أسال دمة من عيني :

- لقد علمت وبكل اسى أن شامة ! ..

- ماتت !!

أكمل حسان ، وضحك حتى ظننت أنه جن . وأنه لن يعود الى واقعه .
لقد شعرت وقتها أن حسان يفسد علي حزني قصدا . فهل أصبحت شامة
واقعا في باطني أيضا ؟ أو أن حسان يؤكد ظنونه في أنى أحببتها واستأثرت
بها دونه فهو يستلهم الشماتة . لقد أحسست - وقتها - اننى وحسان كلانا نابه
جرح .

قال حسان وهو يواصل ضحكته المنقطعة :

لقد كنت آخر من ودعها : ذهب الكل وتركوها فجثوت على جدتها انها ماتت
فى واقعهم . أما أنا ، أما هي . فلم يقدر حتى الموت عن التدخل بيننا ليفرقنا ،
فكل شئ يقتل إلا الحب .

لقد عشت زمنا فى حبها ولها . لقد حجبتموها حية ، انها الآن تقطن عنوانا
لا تعرفه أنت فأنا وأهلها الوحيدون نعرفه عنوانا قارا يحمل لوحة بكل التفاصيل
حتى الذى اهمله أهلها اصفته . انها هناك ، التقى بها فى كل لحظة أريد .
ولكني أقول الحق تبعت - أول الامر - فأهلها بقيت أعينهم على الرمس
يترددون عليه اثناء النهار . فكنت اقتنص لحظات غيبتهم لاجثو هناك ، فلو
شاهدوني على حالتى تلك ، فهل أجد جوابا للسؤال ، وانا لا أحفظ اية من كلام
الله فأقول انما اترحم على الموتى . انهم سيظنون بها الظنون الائمة ، وليس لها
لسان تدافع به . اخيرا يثسوا منها ونسوها . أليست عادة فى الاحياء ،
اصدقك القول اننى تضايقت من زيارة أهلها حتى وجدت الحل فكنا نتناوب
الزيارة تركت لهم حصة النهار بكاملها وانفردت أنا بكل الليل .

قلت :

- يا أبا الاقناز يا حسان الشعب يا صديق الدرب والصبى الى متى نبقى
نخاصم الدنيا ؟

- سأظل كذلك الى أن تنتهى ، وانها كالطريق متى قطعته انهيته . لقد
ذهبت شامة بكل غرض أملتة فأنا الآن أعيش خلوا من كل أمل .

سقط الغليون من بين أسنانه ، ولم يمد يده يبحث عنه ، فقد شغله الحزن .
ولم أشعر الا وأنا أعانقه وأبكي بأشد لوعة منه .

التابعي الأخضر

1989 - 10 - 31

محسن بن ضياف

الغريب

كان يسير ، وكانت دكاكين باعة الازهار تسير معه . أمامها راسية سيارات فخمة مرسيديس 230 ب.م. وغيرها مكلفة بالازهار محاطة باشرطة حريرية بيضاء .

سواء المدينة سوداء تطل من فوق العمارات الشاهقة الاشجار الضخمة التي تلامس حافة الشارع حيث ينام هناك عصافير صغيرة في أمن .

توقف أمام كشك بائع الصحف والمجلات بعديد اللغات مزدانة أغلفتها بصور خليعة جذابة : فتيات في ربيع العمر وشبان في جمال آلهة أساطير اليونان اصطدمت عيناه بوجه بطل عليه من بلور الحجرة الزجاجية التي تحمي بائع الصحف من برد الشتاء القارص . الوجه وجه كهل نيف على الخمسين . أطال كل منهما النظر الى الآخر . ادار وجهه وسار بخطى مترنحة سكرى بطيئة ، كانت تنتشر حوله رائحة خمر معتقة ثمينة . وقف أمامه صديقه الاستاذ الدكتور الجراح الشهير . انطلقت ضحكة رنانة من حنجرتة تماوجت مع رياح الشتاء الباردة ، تمازجت بصوت منبهات قافلة سيارات عرس تتقدمها مرسيديس بيضاء .

- هل تتذكر يا نبيل ليلة ارسلتك لتستأجر لي سيارة تحمل عروسي الى بيتي . ولكنك لم تعد فاضطرت الى استعارة سيارة أحد الاقارب بعدها بقليل وصلت ومعك سيارة لا تصلح لحفلات الاعراس فأمرتك باعادتها من حيث أتيت بها .

نظر اليه صديقه في شبه خجل وابتلعه الليل كما بدا منذ قليل .

واصل طريقه مترنحا سيجارة ترسل دخانها بين شفثيه يحمل بيده اليمنى صندوق مرطبات يتأرجح في خيط حريري أحمر .

وقف أمام واجهة أحد الدكاكين نظر الى صورة ذلك الكهل الذى غزا الصلع
جمجمته عدا هالة من الشعرات البيضاء تحيط بالجمجمة وتعبث بها نسمات
الهزيع الاخير من الليل .

وانطلق لسانه متلعثما .

ثلاثين أربعين خمسين ...

ايها الوغد خمسين عاما كاملة تعبر فيها هذا الكون دون ان يتفطن اليك احد
كانك تمر خلسة متواريا فى الظل فى الخفاء شبح فى عقمة لامست سمعه حركة
التفت ليجد نفسه وجها لوجه مع كلب شارد بارز الانياب مكشرا تقدم كل
منهما نحو الآخر اطلق الكلب نباحا غاضبا ملا الليل رد عليه بشتيمة قدرة
صحبها بركلة سريعة قوية أصابت أسنان الكلب فأطلق عواء وفر هاربا وفقد
هو توازنه فسقط ولم يلبث أن تمدد بكامل جسمه على الارض وانفلت صندوق
المرطبات من يده ليصطدم بالجدار .

تحامل على نفسه وقف أصلح من هندامه نفخ الغبار على ثيابه وبمؤخرته
اتكأ على الجدار بيد ومد يده الاخرى الى صندوق المرطبات يلتقطه من الارض
وسار صامتا وقد انفجر بركان من الحديث الصاخب ثلاثين أربعين خمسين ...
تعمدت منذ عشر سنوات أن احمل اليكم مرة فى الاسبوع صندوق مرطبات
حتى تتذكرون متى تلك العادة لانى سوف لن أترك لكم شيئا من متاع هذه
الدنيا تذكروننى به ... ولكن الليلة ليست كسائر الليالى خمسة عشر عشرين
عشرون عاما بالتمام والكمال انقضت أخذت منى سنين الشباب وعالم الاحلام
والآمال الكاذبة ... ماذا تريدون منى أنت فى الجامعة وأختك فى البكالوريا
وأخوكم الصغير لم يزل بينه وبين نهاية تعليمه الثانوى الا بضع سنوات عندما
يدركها أكون قد أدركت سن الاحالة على المعاش وسيصبح اذاك صندوق المرطبات
ثقيل المحمل .. طموحاتكم لا تحد أحس أن شخصيتكم أخذت ترتفع بقامتها
وهذا رائع .

كان لوقع أقدامه جدوى فى أعماق ليل الشتاء الطويل . وأخذت زخات المطر
تتيناثر على وجهه وتتساقط على هامته وهو يسير فى لا مبالاة كان الليل يحمله
بين ذراعيه يهدده يحفر ويحفر فى ذاكرته .

خرج عن محل الحلويات والمرطبات وإذا بالاستاذ الدكتور يسد عليه الطريق .
فتح ذراعيه وضمه الى صدره وهو يضحك مليء شديقه . أمسكه من ذراعه
وسارا معا فى الشارع الرئيسى ثم أقسم عليه أن يتعشيا معا . عبثا حاول أن
يعتذر عن هذه الدعوة بأن الزوجة والاطفال يترقبونه فانبرى صديقه ساخرا
فى قهقهة :

— أيها العجوز ! لم يعودوا أطفالا بل هم شباب . ثم ماذا سيخشون عليك
منه وعلينا فلسنا شخصيات سياسية أو رجال أعمال نخشى الاغتيال ؛ فالشارع
مملوء بأمثالنا . صديقى الحبيب صديقى الكلب كان كالنعمة او اللعنة التى
نزلت علي أو كالقضاء الذى لا مفر منه لو كنت مثله جراحا !! الضربة أو
الحدشة من مشرطه تساوى مائة دينار أما العملية الجراحية فبالف لكنت شيئا
آخر غير ما هو عليه الآن . فتح صديقه باب السيارة المرسيديس 230 السوداء
ودفعه فى رفق الى داخل السيارة . جلس على الاريكة الوثيرة مستسلما
لصديقه . . رفيق صباه ، سمع صوتا رقيقا يقول فى عذوبة .

— عسلامه .

التفت ناحية الصوت . . اذا امرأة شابة لم تتجاوز الثلاثين سمراء فى لون
العنبر قسماتها رقيقة كأنها دمية . نظرت اليه بعينين واسعتين ثم انفجرت
شفقتها عن ابتسامة قال :

— أهلا بيك الله يسلمك .

جلس صديقه خلف المقود أدار محرك السيارة ودون أن يلتفت الى المرأة قال
بقدمها له .

— اقدم لك زوجتى سلوى .

قال فى نفسه : انها المنة والسلوى . ثم بصوت مرتفع :

— تشرفنا .

قال الاستاذ الدكتور .

لم يسبق لك أن عرفتها لانى لم أدعك الى حفلة زواجنا ؛ فقد تزوجنا منذ
بضعة أشهر فقط ، أنت تعرف فرانسيس .

- قال وهو مازال تحت وقع المفاجأة وصندوق المرطبات فوق ركبتيه .
- مبروك ! نعم الاختيار ؛ فأنت بارع فى الاختيار والانتقاء لجماليات الدنيا .
- قال صديقه مازحا :
- هذا غزل مفضوح .
- لا بل هى الحقيقة .

انطلقت المرسيديس تنزلق فى صمت كأنها على بساط من حرير . أحس برجفة تسير فى كامل جسده وبطعنة نجلاء تصيبه فى قرارة نفسه وضع يده على صدره . تناثرت بعض قطرات المطر على واجهة السيارة سمع صوتا فى اعماقه يخاطبه .

– أنت طماع انك تتهاوى شيئا فشيئا نحو الحضيض وقد بلغت القرار السحيق ، أنت لم ترد أن تبيع نفسك فى يوم ما عندما عرضت عليك ليليان أن تنفق عليك حتى تنال دكتوراه الدولة ، لانك تتصور أو تدعى أنه بإمكانك أن تعتمد على نفسك وتنال دكتوراه الدولة دون أن تبيع نفسك لاية امرأة أما هو فقد كان أذكى منك فقد رضى بالحل لمشكلته أنفقت عليه ثال أعلى مراتب العلم عاشا معا أنجبا أطفالا ثم شعر أنه قد رد لها جميلها فأعطاها عشرين ألف دينار . وعادت الى بلادها بينما استرد هو حريته وها هو ذا يتزوج امرأة شابة فى سن ابنته تقريبا .

ترك صندوق المرطبات فى السيارة وترجل ودخلوا ثلاثتهم الى المطعم الضخم فى ضواحي المدينة . وكان عشاء فاخرا . وكانت ذكريات وضحكات من الاعماق وأنواع الخمور الجيدة . أحس أنه عاد الى خمسة وعشرين سنة خلت عندما كان فارسا لا يشق له غبار واصل طريقه فى صمت حتى أدرك سيارته السيمكا المتواضعة الراسية فى أحد الشوارع الجانبية ودلف اليها يحتمى من زخات المطر والبرد القارص الذى أخذ يضغط على المدينة بقبضته وضع سيجارة بين شفتيه ورائحة عطر «ما دام روشاء» مازال يملأ خياشيمه . انطلق نار الولاة يشعل السيجارة . انطلقت به السيارة تهتز وتراقص أضواء المدينة فى ناظريه . صرخ فى زوجته غاضبا :

- أنا لم أطلب هدية من أبيك . قلت لك : قرضا . فقط . نجرب به حظنا
علنا نغدو أغنياء مثله لا أكثر ولا أقل .
أجابته فى سخرية :

- ولماذا لا تقرض من أحد البنوك فهى كثيرة وكثيرة جدا .
- انها لا تقرض الا بضمان . وما هو ضماننا فنحن لا نملك غير البيت
الذى نساكنه فهل نرهن البيت ؟
- هذه قضيتك ... تصرف .

- التصرف لله . ولكن هل حرام أن يقرضك أبوك شيئا من المال كما أهدي
لأخيك ثلاث فيلات ومزرعة بعنوان بيع . ورغم ذلك يدعى أنه يحب البنات أكثر
من الذكور ، وأنه من أنصار المرأة ومع قانون منع تعدد الزوجات .
قالت غاضبة :

- يا رجل أبى حر فى أمواله يفعل بها ما يشاء أم تريد أن ترثه وهو حي
يرزق ... أنت طماع !!
أحس بالم حاد يمزق صدره كالسهم الذى أصابه فى الأعماق . رفع يده
فى جنون صفعها بقوة فسقطت على الأرض .

أوقف سيارته أمام فيلا فى ضواحي المدينة . دفع باب الحديقة الحديدى
كانت الاضواء تتلألأ داخل البيت فتحت له ابنته الباب وهى تتلقاه بأعين
باكية فانخلع قلبه وصاح فى جزع :

- ماذا هناك .

- جدى يا أبى جدى .

- ماذا به مريض .

- لا بل مات .

- مات ... غير ممكن أن أمثاله لا يموتون .

- قلت لك : انه مات . وقد ذهبت أمى أخذها أخى فى تاكسى الى بيت
جدى .

- رحمه الله لقد كان غنيا ... كلنا ميتون ...
- انى أترقبك لنذهب معا .
- لا يا بنيتى ... لا أستطيع . فلو ذهبت الآن لقليل عنى - طماع - هذا اذا ترك لبناته ما يطمع فيه .
- لكن أنت صهره يا أبى . وأقرب الناس اليه .
- نعم رجل غريب .
- غريب كيف ذلك ؟
- ستعلمين ذلك بعد بضعة أيام فقط .
- لم تع ما يريد بقوله . وقفت واجمة بينما كانت الدموع تملأ عينها .
- قال فى الم :
- أريد ان انام .
- فلتؤجل النوم يا أبى أرجوك ولنسارع الى بيت جدى لا اشك ان كل الاهل الآن قد تجمعوا هناك . ماذا سيقولون عنا ؟
- مرر يده على رأس ابنته فى حنان ، وهو يتسهم انتسامة صفراء تنقبض لها شفثاه كأنها تعض على القتاد أو تترشف العلقم .
- اطلبى أخاك بالهاتف ليأتى فيصحبك الى بيت جدك ... أما أنا فسأذهب الى مرسى وأناام بين لوحاتى وهى التى جنت علي وجرت سخط البعض علي أيضا ولكن هذا لا يهمنى .
- لا يا أبى أرجوك أرجوك .
- لم يقل شيئا اتجه الى حجرة صغيرة تطل على الحديقة وقف بين لوحات وتمائيل . أخذ فرشاة وألوانا . وشرع يتم رسم لوحة بداها منذ أشهر . ولم يعرف كيف ينتهى منها ... لوحة سرىالية فيها جماجم وأذرع مفروسة فى الارض وأشجار باسقة تترنج فى الفضاء . فضاء غريب قد تمازجت فيه ألوان متنافرة متضادة من أسود قاتم الى برتقالى فاتح الى احمر دام وسماوى فيروزى ورمادى حزين كلها فى دوامة اعصار يقتلع كل شىء .
- وضع الاستاذ الدكتور يده فى رفق على كتف صديقه فالتفت اليه . كان يهز رأسه وهو يبط شفثيه تتأبط ذراعه دمية العنبر فاغرة فاها ، وشفثاها مطليتان

بلون العناب فى رسم دقيق كأنها همت بالتلفظ بكلمات ثم عدلت عن ذلك
فتجمد الصوت .

قال الدكتور باسم :

- أنت كما أنت منذ ثلاثين عاما مازلت تتخبط بين السماء والارض ،
سما الفن وأرض الواقع ، تتأرجح كالدمية التى شدت من عنقها بحبل الى
السقف فى منزلة بين المنزلتين ... أتهجرنا لهذه اللوحات الحرساء ؟

أنت لا تصدقنى لو قلت لك : انى ما زلت اذكرك عندما كنت تقع على ركبتك
وأنت ماسك بالطباشير ترسم على أحد أرصفة «مون مارتر» لوحتك المحببة
لغانية فارسية تحتضن عودة فتبدع فى رسمها وتلوينها ويتحلق المارة .

يتأملون باعجاب الفن الاسلامى ينمو ويزدهر على أرصفة باريس ... ثم
تتساقط الفرנקات ... عندما تتم رسمك تمكث قليلا ثم تجمع ما جاد به
المعجبون من هبات هزيلة تضعها فى جيبك . وتكون تلك حصيلتك من المال
تنفقها فى بضعة أيام لتعيد الكرة فى صباح صحو قارص البرد بصورة أخرى،
لابن رشد فى لباس اندلسى ولحية شرقية ... ورفضت يد ليليان التى امتدت
إليك تريد أن تنتشلك وتغنيك عن مثل هذا الضئيل المنتشر بين الفنانين
الشبان فى باريس ، وهى لا تطلب منك غير أن تصبح لك زوجة ... وادعيت
أنك ترفض أن تبيع نفسك بمال الدنيا كلها ... والنتيجة يا عزيزى ...
ستقول لى : ان بعض لوحاتك تزدان بها جدران متاحف أو ثلاث من متاحف
العالم ... ومعهد الفنون .

ضحك وهو ينظر الى رفيق الصبي . ثم قال :

- اعلم أن عملية واحدة من عملياتك الجراحية تساوى ثمن لوحة من لوحاتي
ولكنى قنوع والقناعة كنز .

- قناعة العاجز يا صديقى .

وفجأة انبثق من ذاكرته بيت شعر حفظه منذ أعوام فرمى بها صديقه عابثا

قل لمن يبكى على رسم درس

واقفا ما ضره لو كان جلس

وانفجر ثلاثتهم فى قهقهات صاحبة متعالية تهز جدران الذات وتفجر أسوار الصين القديمة . أحس بغليان فى امعائه واجتاحه غثيان حاد فانطلق بخطى متعثرة نحو حجرة الاستحمام . وقف أمام الحوض فتح فاه وتدفق قيء كرية الرائحة عفنة أحس بارتياح . رفع قامته . اتكأ على باب الحمام يلتقط أنفاسه والعرق يكسو وجهه . تقدم خطوات نحو حوض الاستحمام فتح حنفية الرشاش أدنى الرشاش من رأسه وترك الماء البارد يتساقط مطرا غزيرا عنيقا يثقب جمجمته وينفذ الى دماغه حتى أحسه يتجمد داخل عظام الجمجمة المسننة المتشابكة . اوقف تيار الماء المتدفق وقد غزاه من قمة رأسه حتى قدميه .

خرج من الحمام وكان روح ارشيمادس قد حلت به وهو يردد :

— وجدتها وجدتها . . . سنعلم من الاقوى مشرطك يا دكتور ام فرشاتي .

دخل حجرة نومه . خلع عنه ثيابه المبللة . وقف عاريا يجفف جسمه . أشعل سيجارة ارتدى منامته . أخذ زجاجة ، الكولونيا — ملأ راحته سكبها فوق رأسه ، ذلك الرأس الاشيب الاصلع براحتيه . دلف الى سريره قرب زوجته التى تغط فى نوم عميق . نظر اليها كانت مخائل جمال باهت قد تقادم عليه الزمن مازال مرتسما على وجهها . قال فى صوت رصين هادى كأنه يخاطبها ويخاطب نفسه والليل والسماء والارض والكون كله .

— وجدتها وجدتها .

أحس بالسيجارة تحرق شفثيه ، لفظها فى نفثة قوية ، فوقعت على الارض غير بعيد عن السجادة قرب السرير . أخذ يتابعها بعينيه وهى تلفظ أنفاسها شيئا فشيئا حتى أخذه النعاس حبس نفسه ثلاثة أيام فى مرسمه يرسم لوحة لابنه الصغير ثم حملها معه صباح ذات يوم وخرج ولم يعد .

واختلفت أخباره استشعر بعضهم انه رآه عند احد المعابد البوذية فى الهند والآخر قال فى باريس ، وثالث ذكر انه التقى به فى وادى الملوك بأسوان بمصر ، ورابع رآه فى متحف نويورك ولكن لا أحد استطاع أن يجزم ويؤكد .

المعادلة الصعبة

كان قد تخطى الثلاثين من عمره ، حسن الهندام ، يوحى مظهره بالرجولة وقوة الشخصية رغم تحلية القصر والدمامة عليه .

عرف بين تلاميذه بالجد والحزم وحب النظام الى درجة الصرامة أحيانا . كل الذين عرفوه عن قرب من مدرسين ومدراء معاهد شهدوا له بالاقتدار والتفوق في تدريس مادة اللغة العربية الامر الذي جعلهم جميعا - وفي معظم المعاهد التي عمل بها - يتفوقون على أنه خير من يدرس لتلاميذ الاقسام النهائية .

جميع تلاميذه يحبونه ويوقرونه الا قلة منهم ممن اشتهروا بالكسل والميل الى الشغب ولم يجدوا أي حرج في أن يعيدوا السنة فانهم كانوا يكرهونه وينقمون عليه تشدده في معاملتهم وتقتيره عليهم في الاعداد حسب دعواهم .

حركى يكره الجمود والتفوق ، والحياة على وتيرة واحدة ونسق لا يتغير وقد جعله طبعه هذا يضيق بالاقامة في مكان واحد وقتا طويلا .

وبمرور الايام وبعد أن طاف وتنقل بين مختلف مدن البلاد بدأ يمل حياة التنقل والترحال وأخذت نفسه تتوق الى السكون والاستقرار .

وعزم على العودة الى مسقط رأسه . طلب النقلة واستجيب لرغبته . لكن لسوء حظه عين بمعهد عرف مديره بالضعف والتردد والتسامح المفرط مع الجميع ، الامر الذي تولدت عنه حالة من التهاون وعدم الانضباط سواء داخل الادارة او بين التلاميذ وهو ما جعل الاستاذ عادل يشعر بالتوتر والضيق وعدم الرضا خاصة بعد أن اكتشف ضعف نتائج تلاميذه وضعالة محصولهم العلمي .

ذات يوم وبأحد الفصول الذي يضم أكبر مجموعة من أسوأ التلاميذ خلقا وسلوكا جلهم من الراسبين تحرشت به واحدة من تلك المجموعة وأساءت اليه

القول . وهى فتاة من أسرة برجوازية على قدر كبير من الملاحظة والجمال . من يراها للمرة الاولى يحسبها عارضة أزياء أو فنانة لما كانت تبدو عليه من أناقة وتبرج . فهى ترتدى آخر ما ابتكرته دور الأزياء ، وتتجمل بأحدث مستحضرات التجميل . وتتردد على أشهر قاعات الحلاقة بالمدينة . انها الفتاة الوحيدة فى أسرتها الثرية . الجميع يدللونها ولا يرفضون لها طلبا تفعل ما يحلو لها لا رقيب عليها ولا حسيب .

ويثور الاستاذ عادل فى وجهها ويهم بصفعها لولا أنه تمالك نفسه فى الوقت المناسب .

وكتب فيها تقريراً ضمنه كل كلمة تفوهت بها فى حقها . وطالب بحالتها على مجلس التربية للفصل فى أمرها .

وما ان علم والدها بالامر حتى هدد وتوعد وأبدى استنكاره لموقف الاستاذ من ابنته معتبرا اياه موقفا تعسفيا استفزازيا وتحديا صارخا له شخصيا . ولفت نظر المدير الى خطورة ذلك ملوحا له برفع الامر الى الجهات العليا . اذا هو لم يحسم الموضوع ويحول دون انعقاد المجلس .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ويعتذر المدير له ، ويطيب خاطره ويعدده بأن يكون عند حسن ظنه وألا يفعل الا ما يرضيه . وهو ما تم بالفعل حيث وقع الاكتفاء بتوجيه انذار الى المعنية بالامر التى بدت ثائرة على الاستاذ عادل . وقد حز فى نفسها كثيرا أن يطالب بحالتها على مجلس التربية . فاستنفت أصحابها وصويحياتها وأفضت اليهم برغبتها فى الانتقام منه ودعتهم الى التفكير معها فى البحث عن طريقة يكبحون بها جماحه ويدلون كبرياءه ، ويضمنون بها فى آخر الامر تعديل موقفه من أفراد المجموعة . ولقيت الفكرة استحساناً وترحيباً من الجميع ، وتحمسوا لها وأبدوا استعدادهم لتنفيذ كل ما يقع الاتفاق عليه فى الخصوص . وبعد تبادل وجهات النظر تم الاتفاق على خطة شيطانية تحقق الغرض المطلوب .

وذات يوم خلال فترة الاستراحة بين الدروس الصباحية وجد الاستاذ عادل بالدرج المخصص له بالرف القائم بقاعة الاساتذة رسالة باسمه . وحين فضاها وشرع فى قراءتها بهت واعترفته دهشة . وأيقظه من استغراقه صوت أحدهم يسأله وقد لاحظ ما بدا عليه من ذهول وشروء :

- خير ان شاء الله .. هل فى الامر شىء ؟ ..

ويتردد قليلا قبل أن يجيبه عن سؤاله ويفكر بسرعة : هل يخبره بالحقيقة ؟
وان هو فعل فمن يضمن له أنه لن يذيع الخبر بين الزملاء . وان المسألة ستمر
بسلام ولن تتحول الى مشكلة أو فضيحة فى نهاية المطاف ؟ لا .. لا .. من
الافضل ألا يفعل .

ويبتسم لسائله الذى استمر واقفا فى انتظار الرد ويقول له :

- انها رسالة من صديق قديم أثارت فى نفسى بعض الذكريات العزيزة علي .
هذا كل ما فى الامر ، ودس الرسالة فى جيب سترته وغادر القاعة وسار فى
المر الطويل وقد اعتراه احساس من يخفى بين ثيابه شيئا ممنوعا . وكيف
لا أليس هو يحمل رسالة حب وغرام من احدى تلميذاته اليه تتوهج سطورها
بأحر العواطف والاحاسيس وتطفح بأرق عبارات الاعجاب والمدح .. ولكن
هل الرسالة موجهة اليه من احدى تلميذاته حقا ؟

وكيف السبيل الى التأكد من ذلك ؟

اليست الرسالة موهورة بامضاء «تلميذتك المحبة» .

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

الا يكفى هذا دليلا ؟

قد يكون الامر صحيحا ، وقد يكون خدعة كذلك .

ولم يمض أسبوع حتى وصلت رسالة ثانية فثالثة ورابعة . وانشغل فكره
من حيث لا يدري بتلك الرسائل وصاحبيتها . وكأن يحلو له أن يستعرض
فى مخيلته من حين لآخر صور وأسماء بعض تلميذاته وما كان يصدر عنه على
التساؤل محاولا فى ذات الوقت اجراء مقارنة بين خطوطهن والخط الذى كتبت
به تلك الرسائل عله يهتدى الى الكشف عن فتاته المجهولة . لكنه رغم المحاولات
العديدة التى بذلها لم يصل الى نتيجة تريخ فكره وقلبه . كان كمن يدور فى
حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر .

لم تنقطع الرسائل عنه ، وألقى نفسه نهبا للحيرة والقلق والتأرجح بين
الشك واليقين وان كان فى أعماقه ميالا الى التسليم بوجود تلك الفتاة فى
دنيا الواقع . وينتفض خافقه بين ضلوعه بعد طول هجوع .

هل يمكن أن يتعلق بخيال ؟ بطيف غير منظور ؟؟؟

هل يعقل أن ينسى نفسه فينساق وراء خيالاته وأوهامه كمراهق غر ويتخلى بكل بساطة ويسر عن تعقله وحكمته وبعد نظره لمجرد أنه تسلم بضع رسائل مجهولة المصدر والغاية ؟

كلا انه لا يعيش وهما ولا هو يعدو وراء سراب . ثم انه لم يرتكب جريمة ان هو فتح قلبه للحب ، فمن حقه ذلك . وقد آن الاوان ليفكر جديا في وضع حد لحياة العزوبة والوحدة، الايام تمر بسرعة ولم يعد في العمر متسع ليستمر في تجاهله لنداء الحياة . أسئلة كثيرة كانت تلح عليه . ولكن السؤال الذي كان يعذبه ويؤرقه أكثر من غيره هو كيف يمكنه الوصول الى فتاته المجهولة والتحدث اليها ؟

وفى يوم وصله منها الرد عن سؤاله الحائر ذاك . طي رسالة موجزة بعثت بها اليه تدعوه الى الاجتماع بها في زمان ومكان ذكرتهما له .

وتهزه نشوة غامرة . لقد تحقق الحلم أخيرا . لكن سرعان ما تعاوده شكوكه ومخاوفه من جديد .

لا لن يذهب ، انه لم يتأكد بعد من أى شئ . فقد يكون فى الامر مكيدة . بل سيذهب ليقطع الشك باليقين .

كان قلقا . وكان سعيدا فى الآن نفسه وكان متخوفا من ذلك اللقاء ، ومما قد يخفيه له من مفاجآت غير سارة . ويجل اليوم الموعد . يرتدى أحسن ثيابه، ويصلح من شبدانه. وما ان تنحدر الشمس نحو المغيب حتى يسير باتجاه مكان اللقاء . وفى الموعد المحدد كان هناك . وقف يجيل الطرف حوله وكان الظلام قد أخذ فى الانتشار . . يبدو أنها لم تأت بعد ومرت دقائق ، وشعر بحرج شديد وهو يرى عيون المارة مصوبة اليه وهو فى وقفته تلك . وبين لحظة وأخرى كان يدقق النظر فى ساعة معصمه . الوقت يمر ولم يظهر لها أى أثر . هل عاقها عائق أقعدها عن المجيء ؟ أم حدث لها شئ فى الطريق ؟

ألا يمكن أن يكون ضحية مؤامرة خبيثة ؟؟؟ ؟؟؟

وفجأة برز له بعض الشبان . وقفوا فى مواجهته بعيدا عنه وسمع أحدهم يقول له :

– يكفيك وقوفا في العراء يا أستاذ • الجو غائم بارد والسماء تنذر بنزول المطر • التي تنتظرها لن تأتي أبدا فانها ما وجدت الا على الورق وفي خيالك أنت وحدك • وارتفعت الضحكات • وتناهى اليه صوت آخر يقول له :

– نأسف لازعاجك يا سيدي ، وعذرنا أنك أنت الذي اضطررتنا الى ذلك • ومهما يكن من أمر فأتنا نطلب منك باسم كل تلاميذك مراجعة موقفك منا واعادة النظر في أسلوب معاملتك لنا ، وأن تكون معنا أكثر مرونة وسخاء فيما تسنده لنا من اعداد • نرجو أن تكون قد استوعبت الدرس وتفهمت مطالبنا التي عرضناها عليك • وان تتقبلها بروح رياضية وتعمل على تحقيقها – وهو ما نأمله وننتظره منك – واذا أنت ركبت رأسك وخيبت أملنا فيك ولم تستجب لما نطلبه منك فسوف تضطرونا الى الاستمرار معك في اللعبة حتى النهاية • وسنرى ما سيكون عليه حالك وقتها • في أسرتك ، وفي المعهد والمدينة ، وكيف ستلقى تلاميذك ورفاقك وصحبك بعد أن يفتضح أمرك وتشيع قصتك بينهم ؟ فتخير لنفسك ما تشاء • وما ان أنهى الشاب كلامه حتى حياه ومن معه تحية المساء وانصرفوا • وساروا في الدرب الطويل وهم يضجون بالضحك • وظل واقفا مكانه في تعجب وجمود يتبعهم نظره الى أن لفهم الظلام دون أن يتعرف على واحد منهم • كان شارد الفكر كمن استغاف من نوم عميق طويل • ويتحامل على نفسه ويتحرك عائدا الى البيت لا يكاد يعي أو يرى شيئا مما حوله • وسعى الى النقلة لكنه لم يوفق الى ذلك • وتملكه احساس بالاحباط واليأس فظيع • واصطبغ كل شيء في عينيه بلون الرماد • كان يتعذب الى درجة الاحتراق • وأكثر ما كان يعذبه ويطحنه شعوره الحاد بصغره وضآلته وباحتقاره لنفسه •

ولاحظ تلاميذه ما أصابه من تغيير مفاجئ لم يعرف غالبيتهم له سببا ولم يجدوا له تفسيراً • كان يبدو حزينا منكسرا مهموما ، قد انطفا حماسه وفتر نشاطه وتساوت لديه الاشياء والاضداد •

الشيء الوحيد الذي كان يشغل فكره هو : كيف يستعيد مكانته واعتباره بين تلاميذه ؟.....

محمد الخموسي الحناشي
قابس

مقومات الخطاب السردي وتطبيقاتها في الرواية التونسية (*)

1 - مقدمة :

تبرز الدراسات التي خصت بها الرواية التونسية اهتماما ملحوظا بالجانب المضموني دون أن يلقى الجانب الشكلي العناية التي تتطلبها . لذلك كان التركيز أشد على الاهتمامات الاجتماعية وما تحمله من دلالات تعكس جوانب من تحول المجتمع وكيفية ترابط العلاقات الاجتماعية بين طبقاته .

أما أهمية الجانب الشكلي فتتأتى من الدور الذي يمكن أن يكون لها في دراسة صلة الكتابة الروائية بالاجناس الادبية الاخرى المتصلة بها كالقصة والسيرة والمسرح وفي ذلك تبين مدى أصالة هذه الرواية أو انبثاتها . كما أن تقصى الجانب الشكلي في الكتابة الروائية يمكن من تبين مدى قدرة كتاب هذا الصنف الادبي على مسايرة تقنيات التبليغ الكتابي .

واعتبارا لان الكتابة الروائية هي بالاساس بناء لغوي يقوم على عرض أحداث يرى الكاتب ضرورة تبليغها للقارئ، من خلال منظور خاص به فإن صيغ الخطاب الروائي تعتمد في هذا التبليغ احدي الطريقتين الفنييتين التاليتين :

- السرد

- العرض او الوصف .

ومنذ وقع الاهتمام بتحليل مقومات الخطاب الروائي تبين أن صيغ هذا الخطاب ترجع في تقسيماتها الى أصل المفهوم الاغريقي للادب والذي يقوم على :

(*) قدمت هذه المداخلة في « ندوة الانماط السردية » المنعقدة خلال أيام 7 - 8 -

9 جويلية 1989 في نطاق مهرجان قابس الدولي .

- المحاكاة (Mimésis)

- الحكى (diégésis)

وقد وقع تطوير هذا المفهوم من خلال التحليلات الانقلو - أمريكية الى :

- العرض (Schowing)

- السرد / الحكى (Telling)

ولعل آخر المفاهيم المتعلقة بمجال السرد الادبى فى شكله العام هو مفهوم «الاجبار» (information) وهو من المفاهيم اللصق بالادب العربى القديم من خلال «الخبر» و«الوقائع» .

أما فى نطاق السرد الادبى فان موضوع التبليغ السردى يبقى منحصرا فى:

تبليغ الاحداث (والافكار ؟)

- تبليغ الاقوال

ويمكن تبليغ الاحداث والافكار الكاتب من رسم الاطار الزمنى لحركة شخصه الروائية كما يمكنه أيضا من وضع هذه الشخص فى اطارها المكاني وبذلك تتحدد ملامحها التاريخية / الاجتماعية . وهنا تبرز أداة التبليغ السردى المتمثلة فى «الراوى» نظرا لما لها من أهمية فى كشف زاوية النظر والموقف الذى يكون له ازاء الشخصيات والاحداث . أما تبليغ الاقوال التى ترد على لسان الشخص الروائية فقد يتم مباشرة عن طريق العرض أو غير مباشرة عن طريق السرد والنقل .

هكذا يتضح أن الخطاب السردى يحتل حيزا أساسيا فى نطاق الكتابة الروائية اذ يتم عن طريقه تطوير الحدث القصصى وتبليغ ردود فعل الشخص الروائية وهو من ناحية أخرى يميز - فى نطاق النوع القصصى - الاصناف الحكائية وذلك من خلال مستويات وصيغ ووظائف السرد وكذلك من خلال شخصية السارد وموقفه من موضوع السرد . وهي جوانب تتضح بشكل أفضل من خلال استعراض خصائص الخطاب السردى .

2 - خصائص الخطاب السردي :

يقوم الخطاب السردى على ثلاثية «السارد / موضوع السرد / المسرود له» وفى نطاق هذه الثلاثية تقوم علاقات ثنائية بين كل طرفين فيها لعل من أهمها تلك التى تميز السارد وموضوع السرد اذ عن طريقها يمكن ان نتبين اهم مميزات الخطاب السردى من مستويات وصيغ ووضعيات وأنماط سردية .

2 - 1 - مستويات الخطاب السردى :

يعتمد الخطاب السردى على التبليغ اللفظى من خلال نسق سردي يميز تقديم الشخصيات والاحداث ويتم فى نطاقه المروحة بين :

- تقديم المشاهد .
- تصعيد الاحداث .
- اجمال المواقف .
- ايقاف الحركة عند المرور الى الوصف .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويقوم الكاتب بترتيب هذه العطيات حسب تواتر يختاره يسمح له بتقديم «الاحداث / الاقوال / الشخصيات» وهو ما يمثل فى النهاية مجمل وسائل الترتيب والتقطيع والوصل والاعادة والربط لنظم الشخوص والزمن والمكان فى حركة أو مشهد يساهم فى تشخيص الفكرة المراد تبليغها .

2 - 2 - صيغ الخطاب السردى :

تقسم صيغ الخطاب السردى اعتمادا على شخصية السارد والوظائف السردية .

- **الخطاب السردى من خلال السارد :** يصنف السارد حسب موقعه من عملية السرد الى :

- سارد يشارك فى الاحداث المسرودة .
- سارد لا يشارك فى الاحداث المسرودة .

وبذلك تبرز عملية تصنيف المستويات السردية بمثابة تنميط لمفهوم «التضمين الحكائي» (Enchâssement) الذي قد ترد في نطاقه عدة مستويات للسرد مع رواة تختلف شخصياتهم ومواقفهم باختلاف الحكاية التي يرد في نطاقها خطابهم . وفي هذا السياق فإن مشاركة السارد في الخطاب الذي يتكفل بتبليغه أو عدم مشاركته فيه تحدد موقفه من الاحداث ووجهة نظره ومدى اطلاعه على فحوى الاحداث التي تتعلق بخطابه وبمواقف الشخصو السارد الروائية . فالسارد الذي لا يشارك في الاحداث لا يمكن لخطابه السردى أن يرد الا بصيغة ضمير الغائب وهو ينقل اقوالا وأفعالا لشخصيات قد لا تربطه بها أى صلة الا تلك التي تفرضها عليه ضرورة السرد مما يمكن الكاتب من اكساب تلك الشخصية الكثير من المعرفة بالاحداث وبالشخصو الروائية قد لا تكون فى حاجة اليها . ومثل هذا السارد قد يتحول فى كثير من النماذج الروائية الى موجه للاحداث ومتدخل فى فرض سياق خاص بها .

أما السارد المشاركون فى الاحداث الروائية فان زاوية النظر التي يتكفل بتبليغها لا يمكن أن تتجاوز الموقف المنوط بشخصيته وتقف عند حدود الشخصية التي يمثلها والتي قد تجد فى مواقف الشخصيات الاخرى تطويرا للاحداث فى واقعها . وغالبا ما يكون مثل هذا السارد موقف يكون أحسن صيغة للتعبير عنه ضمير المتكلم لما يحمله هذا الضمير من آنية حديثة وحضور متزامن من تطور الاحداث فى نطاق الرواية . كما يصنف السارد أيضا حسب موقفه من الاحداث المسرودة الى :

- سارد متحمس لموضوع السرد ومتبن لوجهة نظر الشخصو الروائية .
- سارد مناهض لموضوع السرد يتخذ منه ومن الشخصو موقف معارضة أو عداء وهو فى هذه الحالة على مسافة ما من الاحداث .
- سارد لا يهتم بالاحداث المسرودة وغير معني بها .

من خلال كل المواقع وبكل المواقف التي تكون للسارد من موضوع السرد يتضح موقف أولي هو الباطن ما يمثل وجهة نظر الكاتب أو الرؤية التي يحملها عن الافكار التي يسعى الى تبليغها وما اعتماده على السارد فى ذلك الا جزء من عملية «الايهام الادبي» التي تتخذ الشخصيات النمطية رموزا لها .

- **الخطاب السردى من خلال الوظائف السردية :** تتعدد الوظائف السردية بتعدد غايات التبليغ السردى وهى تنقسم فى أساسها الى صنفين :
 - صنف الوظائف المضمونة والمتعلقة بمحتوى الخطاب السردى وهى الصق بمواقف الشخصوى الروائية .
 - صنف الوظائف الشكلية والمتعلقة بطريقة تبليغ الخطاب السردى من خلال الشكل الروائى .

أما الوظائف المضمونية فيأتى فى سياقها كل من **الوظيفة التفسيرية والوظيفة الاستشرافية** للأحداث **والوظيفة التعليمية والوظيفة الاقناعية** . الخ . . وكل هذه الوظائف يمكن أن توضع تحت خانة «**الوظيفة الاعلامية**» نظرا لما للخطاب السردى من أهمية فى التعريف والاعلام بالشخوص الروائية والمكان والوسط الاجتماعى / التاريخى الذى تتحرك فيه .

أما الوظائف الشكلية فتتعلق أساسا بافتتاح الخطاب السردى واختتامه (**الوظيفتين الافتتاحية والاختتامية**) وكذلك بتوزيع مقاطعه على كامل المجال السردى حسب نسق يضمن التوازن ومتابعة المسرود له وفى هذا السياق تأتي **الوظائف الترفيحية والتشويقية والابهارية** . الخ .

2 - 3 - **الوضعيات السردية :**

تختلف الوضعيات السردية بحسب ضمير السرد والصيغة السردية والمنحى السردى وحالات تواتر الخطاب السردى .

- **الوضعيات السردية وضمير السرد :** يسيطر على الوضعيات السردية ضميران للخطاب هما «**ضمير المتكلم**» و «**ضمير الغائب**» أما «**ضمير المخاطب**» فغالبا ما ينتج عن تحول لضمير المتكلم فى وضعيات المحاسبة الذاتية والادانة وازدواج الشخصية . وما طغيان **ضمير الغائب** على مجال الخطاب السردى على الكثير من الكتابات الروائية الا بغاية تحميل الشخصيات الاخرى ما قد يتورع المتكلم عن الافضاء به وهو فى نفس الوقت اشعار للقارى بمدى اتساع المسافر التى قد تقوم بين المؤلف وشخصية السارد أو بين هذا الاخير والشخوص الروائية التى يتحدث عنها . وفى الجملة فان ضمير الغائب يترك المجال واسعا أمام الكاتب لتوجيه الاحداث الوجهة التى يراها تتماشى أكثر مع

طبيعة الشخصيات الروائية وذلك من خلال زاوية نظر أشمل لتلك التى تكون لسارد يتقمص ضمير المتكلم وغالبا ما يكون مشاركا فى الاحداث أو على صلة ما بها .

– **الوضعيات السردية وصيغة السرد :** تتميز الوضعيات السردية من خلال صيغ السرد وذلك نظرا للأهمية النسبية التى تكون لسيطرة السارد أو لسيطرة الشخص الروائية على الخطاب السردى . وبقدر ما تكون هيمنة السارد كبيرة على المجال السردى تقل أهمية الاحداث والحركية فى تطوير الخطاب السردى وتبرز أكثر الجوانب التحليلية الوصفية أو الاستبطانية . فى حين أن سيطرة الشخصيات من خلال حركيتها وأقوالها على المجال السردى يكسب هذا الخطاب امكانيات تحولية أكبر من موقف الى آخر كما أن ذلك يساعد على ابراز ملامح الشخصيات وأفكارها . فسيطرة السارد على الخطاب القصصى قد يبرز رغبة لدى الكاتب لتحليل الاشياء وتفصيلها وهو فى حالته القصوى صورة من هيمنة تفكير الكاتب على تطوير الحدث الروائى وهذا الجانب عادة ما يعكسه الرواية التعليمية . أما سيطرة الشخصيات على صيغة الخطاب السردى فقد تبرز من خلال حركاتها أو أقوالها . وفى الصورة التى تهيمن فيها أقوال الشخصيات فان الخطاب السردى يقترب أكثر ما يمكن من الحوار المسرحى .

– **الوضعيات السردية والمنحى السردى :** يتميز المنحى السردى فى الاثر الروائى بتميز موضع السارد من الاحداث المسرودة . فالسارد الواقع داخل الاحداث السردية لا يمكنه الا أن يكون متابعا لها وقد يساهم فى تطويرها وبذلك فهو زيادة عن دور الشاهد الذى يكتسبه من موقعه ذاك له أحقية الحكم عليها واتخاذ موقف منها ومن الشخص الروائية فى حين أن السارد الواقع خارج الاحداث السردية لا يمكنه أن يقف منها الا موقف المتابع خاصة اذا كانت المسافة الزمنية التى تفصله عنها كبيرة .

بذلك يتضح أن المنحى السردى يحدد بشكل أساسى وجهة نظر السارد وموقفه من موضوع السرد وهو بشكل من الاشكال ضبط لموقف الكاتب من الايديولوجيا التى يحملها خطابه السردى ذاك .

– **الوضعيات السردية وتواتر الخطاب السردى :** يرد الخطاب السردى فى شكل دفقات تعبيرية تتراوح فيها الحركية ونقل الاقوال . وبحسب ترتيب المقاطع السردية يمكن تقسيم الخطاب السردى الى صنفين أساسيين هما :

• التدرج السردى

• التداخل السردى

أما حالة التدرج السردى فتعتمد التسلسل التصاعدي للأحداث مع تقديم الشخصيات حسب أهمية حضورها فى رسم المجال الروائى الذى ستتحرك فيه وكذلك الأبعاد النفسية لتي قد يقع التطرق إليها . وحالة التدرج السردى الصق بأصناف معينة من الرواية مثل الرواية التاريخية والرواية الطبيعية وغالبا ما يعاب عليها غياب عنصر التشويق ورتابة العرض . وأما التداخل السردى فيعتمد بصورة أساسية التقطيع المشهدى والتركيز على مواقف أو شخصيات دون غيرها مع إمكانية الالتجاء الى الاستعادة والتوازي والتضخيم وهى إمكانيات فنية تمكن الكاتب من عرض «وضعيات» و «مشاهد» أكثر مما قد يتوفر فى نطاق التدرج السردى . كما أن التداخل قد يمكن الكاتب من استعمال تقنيات مختلفة لعرض النص الروائى اعتمادا على الصورة والحرف والرمز .

فالخطاب السردى هو فى النهاية من أهم نواقل ايدولوجية الكاتب لتوصيلها الى القارئ وعلى مدى مباشرته أو عدمها ومدى بساطته أو تعقيدته ومدى رتبته أو تداخله تقوم التقنية الروائية وهو فى النهاية «نمط سردى» قد يميز رواية بعينها أو كاتباً بذاته . ومن هذا المنطلق يمكن أن نميز فى نطاق الانماط السردية صنفين أوليين هما :

• السرد الموحد النمط

• السرد المتعدد الانماط

ويرتكز مدى توحيد نمط السرد أو تعدده على وجهة نظر السارد والبؤرة التى تتضح من خلالها الرؤية الروائية . وعملية «التأبير» (Focalisation) فى تقديم الأحداث الروائية وتطويرها تكتسب أهمية خاصة فى مجال الاعلام الذى يختاره الكاتب من خلال الخطاب الروائى . ويختلف التأبير بحسب موقع السارد لذلك يمكن تقسيمه الى الاصناف الثلاثة التالية :

• التأبير الداخلى

• التأبير الخارجى

• غياب التأبير

وكلما التجأ الكاتب الى تعديد أنماطه السردية والمراوحة في نطاقها بين بؤرة النظر الداخلية ووجهة رصد الاحداث خارجياً أمكنه أن يضع أمام شخصه الروائية خيارات أكبر للحركة والقول . كما أن تعديد مستويات الخطاب السردى فى نفس الاثر الادبى وتغير موقف السارد من الوضعيات السردية والاحداث المسرودة بالاضافة الى الاعتماد على حالات التداخل السردى ، كلها تقنيات تمكنه من وضع معمار روائى أكثر حظوظا للتبليغ .

3 - خصائص الخطاب السردى من خلال نماذج من الرواية التونسية :

يتضح من خلال الدراسات المضمونية التى تناولت الرواية التونسية تميز منحيين أساسيين هما :

- الاهتمام النضالى وفيه تأكيد على مرحلة الصراع من أجل التحرر من المستعمر .

- المنحى الاجتماعى وفيه رصد للتحويلات الاجتماعية التى يمر بها المجتمع التونسى منذ استقلت البلاد .

ومن خلال هذين التوجهين الاساسيين تبدو الرواية التونسية واقعية فى عرضها للاحداث ، هادفة فى توجيهها الفكرى الى تبليغ محتوى يعكس موقفا من التاريخ القريب أو من مظاهر اجتماعية معينة تعتمد شخصيات أقرب ما تكون الى تصور القارئ نظرا لانها تستمد نماذجها من الوسط الذى يحمل نفس تقاليده وعقليته .

وان كانت المرحلية التى مرت بها الرواية التونسية قد أبرزت المرور التدريجى من الاهتمام التعليمى / الوعظى الى الاهتمام النضالى ثم الاهتمام الاجتماعى الا أن تداخل الاهتمامات فى بعض نماذج هذه الرواية يجعل من الصعوبة بمكان تصنيفها اعتمادا على هذا الجانب فقط . ولكن اعتبارا لان مثل هذا التصنيف يبقى أوليا فان الجانب السردى قد يبرز من جملة الخصائص التى تساعد على تبين أفضل لمراحل الرواية التونسية نظرا لما للسرد من اتصال بتطور مفهوم الكتابة الروائية .

فى هذا النطاق تبدو الوظائف السردية خير خاصية تسمح بتبيين التحول .

فبصورة عامة تبدو **الوظائف المضمونية** هي الطاغية على الرواية التونسية بما فيها تلك التي اختارت الجانب الشكلي هدفا («العدوان» لعز الدين المدني «نون» لهشام القروي و«الموت والبحر والجرد» لفرج الحوار) . وبذلك كانت **الوظائف الشكلية** ذات أهمية ثانوية لا تتعدى الوظائف الشكلية الأساسية من افتتاح الخطاب السردي أو اختتامه والالتجاء الى التشويق في بعض المواقف والحد من رقابة النص السردي بالالتجاء الى الحوار او المناوبة بين الضمائر . ويبقى **التواتر السردى** قائما بالدرجة الاولى على **التدرج الزمنى / الحداثى** الذى تأخذ الاحداث الروائية من خلاله نسق الزمن الطبيعى فى المواقف الاهم من غيرها والتي يستعرضها الكاتب ببعض التفصيل الجزئي .

ويبرز تدرج الخطاب السردى بصورة خاصة فى الصنف النضالى من الرواية التونسية («حليمة» و «التوت المر» لمحمد العروسي المطوي ، «حب وثارة» لعبد الرحمان عمار «أرجوان» لمحمد المختار جنات و «يوم من أيام زمراء» لمحمد صالح الجابري) . وفى حل هذا الصنف من الرواية التونسية فان الوظائف السردية الشكلية تبقى فى مستوى السياق الحكائى مع وجهة نظر غالبا ما تكون أحادية الاتجاه تقف فى معسكر المضطهد وتدافع عن مبادئه ومقومات شخصيته مع كل ما فى ذلك الانحياز من تجاهل للجانب الآخر الا فى المواقف التى تفرض فيها ضرورة الاحداث بروز بعض شخوصه .

مع النماذج الاولى للرواية ذات المنحى الاجتماعى فى نطاق الرواية التونسية («الدقلة فى عراجينها» للبشير خريف و «المنعرج» لمصطفى الفارسي) يبدو النص السردى متدرجا فى نسقه السردى ، تصاعديا فى عرضه للاحداث ، يعتمد ساردا لا يهتم بالاحداث التى يتعرض لها الا من وجهة النظر السردية وهو نفس الموقف الذى يبرز به السارد فى نطاق الرواية ذات المنحى النضالى . وكان وجود السارد فى النص الروائى وظيفة تقتصر على تبليغ الاحداث الى المسرود له من طرف شخصية غائبة الملامح أنيط بعهدتها السرد كما لو أن السرد واجب لا يمكنها التهرب منه . فهذا السارد الواقع خارج الاحداث الروائية التى ينقلها يعتمد إقص ولا شئ غير القص يصنف الكلمات وراء بعضها مقتطعا اياها من سياق حياة الشخصيات حسب اختيار يعتمد المواقف وذلك من خلال ضمير الغائب بشكل ينتهى بالقارى الى تصور أن مثل هذا السارد لا يمكن أن يختلف فى أى شئ عن الكاتب ذاته . ولعل من الاسباب التى

غالبا ما أكسبت النص الروائي الكثير من الرتبة والتسطح وجود هذا السارد الذى يقف من الاحداث موقف غير المنتمى هذا بالاضافة الى اختيار نسق التواتر التدرجى الذى لا يمكن فى النهاية أن يحمل الكثير من المفاجأة أو الحديثة غير المتوقعة .

مع تعدد النماذج الروائية التى تسعى الى التركيز أكثر على الابعاد النفسية للشخص و تحليل دواخلها من **وجهة نظر داخلية** («الموت والبحر والجرذ» لفرج الحوار «مراييج» لعروسية النالوتى و «فى بيت العنكبوت» لمحمد الهادى بن صالح) يبرز **التقطيع السردى وتداول الضمائر على السرد وتنوع السارد** من أهم المقومات الفنية التى تساعد على تنوع **وجهة النظر** لدى الشخص الروائية واكساب السارد حضورا ألصق بالاحداث التى يرويها وان كان فى ذلك اقحام - أحيانا - لموقف الكاتب (كما فى روايات محمد الهادى بن صالح) الا أنه اقحام لا يعتمد المباشرة بل يسعى الى جعل الشخصيات هى الوعاء الحركى لايدولوجيا الكاتب .

يبدأ المرور من ضمير الغائب الى ضمير المتكلم فى الرواية التونسية من أهم التحولات السردية التى عرفت مع منتصف السبعينات وفى ذلك التحول حدث وعي أكبر بضرورة تطور تقنيات الكتابة الروائية لكى تبدو أكثر ايها ما بنقل الاحداث والاقوال من داخل الشخصيات الروائية ومن داخل السياق الحديثى لحركاتها ومواقفها . وفى هذا التحول لوضعية السارد كبير الاثر لتحول وجهة النظر التى أصبحت ألصق بالوسط الذى تقع فيه الاحداث الروائية وبذلك اكتسب السارد شرعية حضوره فى نطاق النص الروائى كما اكتسب أيضا شرعية السرد التى كثيرا ما غابت فى النماذج الاولى للرواية التونسية . ولكن شرعية حضور السارد فى مجال الاحداث التى يتعرض لها سرعان ما وضع مشكل **الانحياز الحتمى** مما يجعل محتوى السرد منحازا بالضرورة الى موقف ذلك السارد ولا يمكن باقى الشخص من البروز حسب **وجهات نظر مخالفة** وهذا ما فرض التخلي تدريجيا عن **التدرج السردى** والالتجاء تدريجيا الى **التداخل السردى** الذى يسمح للكاتب بتوظيف مستويات مختلفة من السرد حسب نسق يختلف باختلاف المواقف . وفى عملية التداخل السردى امكانية لتعدد السارد والمداولة بين ضمائر السرد (كما فى روايات محمد الهادى بن صالح : «الجسد والعصا، الناس والحجارة وسفر النقلة والتصور» .

بقي أن نشير الى أن الرواية التونسية رغم كل المراحل التي قطعتها في سبيل تقديم خطاب روائي مقنع مازالت في مستوى **النص السردي الأفقي** الذي يعتمد حديثة حكاية واحدة مع مستويات سردية قد تكون مختلفة لكنها تبقى كلها في خدمة نفس الحديثة التي غالبا ما يربطها الكاتب باحداثيات زمكانية متجانسة لا تبرز أكثر من الحكاية التي اختار أن يعرضها . ومن هذا المنطلق يكون النص الروائي التونسي في مستوى بناء وحيد الطابق لم يعرف بعد التركيب العمودي . ولعل ذلك نتيجة الاهتمام المضموني الذي يسعى دائما الى أن يكون ذا بعد واقعي هدفه أن يبلغ للقارئ وجهة نظر الكاتب ازاء أحداث يشتركان معا في التعرف عليها وفي التعرض لنتائجها الاجتماعية .

4 - خلاصة :

يبدو الجانب الشكلي في الرواية التونسية أحوج ما يكون للدراسة لتتبع المراحل التطورية التي مر بها موازاة مع ما حدث في الجانب المضموني لهذه الرواية ومن هذا المنطلق يأخذ الجانب السردي أهمية خاصة نظرا لانه الارضية التي تكسب الخطاب الروائي أبعاده التاريخية / المكانية وهي من أهم الابعاد في الرواية التونسية التي تعتمد البعد الواقعي الاجتماعي في محتواها .

وفي نطاق الجانب السردي فان شخصية السارد تبرز من جملة أهم الجوانب التي تعرضت للتحويل فبعد أن كان السارد في النماذج الاولى للرواية التونسية يعتمد ضمير الغائب الذي يقتصر على عرض الشخصيات الروائية وأقوالها وحرركاتها دون أي انتماء للنص ودون موقف منه باعتباره مجرد **جهاز للحكي** يحمل الكثير من اطلاع الكاتب ووجهة نظره نراه في النماذج الاخيرة لرواية الثمانيات أكثر انتماءا للحدث التي يرويها وله منها في الغالب موقف يحمله ضمير الخطاب الذي كثيرا ما يتبنى الحدث والظرف الزمني له . وما تعدد ضماير السرد وتنوعها من خلال تقنيات التقطيع والاستعادة والتضمين لمستويات مختلفة من الروائي الا دليل على تطور الخطاب الروائي في اتجاه تعقد النص وتعدد مستوياته . ومثل هذا التعقيد الذي قد يصاحبه تعدد للمستويات السردية من أسباب ثراء النص الروائي وتكثف محتوياته أيضا .

أحمد مـ

تونس ، جوان 1998

الحريق

زغرودة أمك لعلمت فى الفضاء .. اخترقت طبلة أذنك لتزلزل كيائك
الداخل كما زلزلت كيائك الخارجى .. تلك الزغرودة التى أطلقتها أمك يوم
نجحت فى امتحانك الدراسى الاخير فى حياتك ..

ثلاث أوراق موضوعة أمامك فوق الطاولة .. ورقة الكهرباء مسجل فيها
عشرون دينارا ونيفا .. ورقة الماء تطالبك بدفع قيمة مالية لا تختلف كثيرا
عما تطالبك به ورقة الكهرباء .. ما كادت عينك تستقر على ورقة الماء حتى
صدم سمعك نعي المذيع يخبرك بأن فيضانا فى الوسط الغربى جرف العباد
والانعام .. صحت فى وجه ابنك أن يطفىء التلفاز .. وزدت صراخا :

« لو ينزل طوفان نوح فان شركة الماء لا تعفني من الدفع !! »

الورقة الثالثة تنبيه من صاحب البيت الذى تسكنه .. لقد أرسله مع
العدل المنفذ وأنت فى القسم تلقى على مسامع تلامذك درسا فى الايثار . ما
لهذه الدروس قد صدئت وتهرأت وتآكلت حتى لكأنك صرت « مرنوشا » أو
أحد رفاقه .. أنت منفصم .. كلفوك باستعمال قاموس لا تستهلكه الا فى
المدرسة .. حدثوك فحدثت تلامذك عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه
كيف بقي ثلاثة أيام بلياليها هو وزوجته فاطمة رضى الله عنهما صائمين الا
على قليل من الماء يشربانه أثناء الليل .. لقد آثرا مسكينا ویتيما وأسيرا ..
هل تستطيع أنت أن تؤثر أحدا على نفسك ولو فى ركوب الحافلة ..

ودار الشريط فى مخيلتك .. شريط بلا مؤلف قصة أو سيناريو بلا
مخرج أيضا .. شريط كنت أنت بطله يوم أن كنت ساذجا .. يومها قررت
أن تؤثر الناس جميعا .. ووقفت فى محطة الحافلات مقسما الا تأخذ مكانا
فى الحافلة الا آخر الناس .. آثرتهم المرة الاولى والثانية والثالثة ..
والعاشرة .. كان الصقيع يلسع وجهك . وكان جسمك يرتعش من قمة

رأسك الى أخمص قدميك .. ولما طالت وقفتك مر بك آخر عون في المحطة
في طريق عودته .. سالك :

- ماذا تنتظر هنا ؟

- اننى انتظر الحافلة .

وصفحك بقوله :

- انتهى مجيء الحافلات .. كلها عادت الى المستودع ..

نظرت الى القفة فى يدك وفيها ثمانون كراسا .. أدليت يدك الاخرى الى جيبك
فأخرجت نقودك كلها .. أحصيتها أولى وثانية وثالثة .. وأجريت حسابا ذهنيا
أصعب مما تطالب به تلامذتك .. أردت أن تكيّف نقودك حتى تسمح لك
باستعمال تاكسي للرجوع الى بيتك .. لكنك لم تستطع . صعدت بواحد
ونزلت باثنين فوجدت ميزانك النقدي دوما فى انخفاض .. كل موازينك
النقدية عاجزة .. انحنيت تلتقط قفتك وسرت بضعة خطوات .. كان
الصقيع يخز كفك التى تحمل القفة وكان بينك وبينه عداوة متأصلة .. كأنه
يريد أن ينتقم منك .. كأنه شبح يتراقص أمامك يهزأ بك يضحك منك ..
تريد أن تؤثر الغير .. يا لك من غبي ! يا لك من أحمق .. زماننا يا أبله :
« روجي روجي لا يرحم من مات .. » .. حاولت أن تنظر الى معصمك لتعرف
الساعة . ولكنك تذكرت أنك لا تحمل ساعة فى معصمك . واصلت طريقك
بينك وبين المنزل حوالي عشرين ألف خطوة .. الجوع ينهش أحشاءك ..
لعنت مسعودا فى سرك .. أحسست أنه جشع وأنه لا يؤثر أحدا .. بعث
لك الشاطر والمشطور بينهما كامخ .. فكمخك وكمخ معدتك وكمخ أمعاءك ..
كان فى بداية الشهر يبعث لك كامخا لذيذا منوعا فيه كثير من البروتينات ،
قطع الباطاطا المقلية نظيفة ليس فيها شائبة وسخ .. كان أحيانا يأتيك به
بنفسه .. يقدمه لك قائلا :

- كيف أحوال الطفل معك ؟

الطفل عفريت مشوش مهمل .. كل المواد لا يستطيع أن يتحصل فيها على
أكثر من صفر الا الحساب .. دائما هو الاول فيه .. دائما يجيبك قبل انتهاء
عرضك للمسألة كأنه يعرف بالضبط ماذا ستقول .. لم يتعلم الحساب من

كتاب أو كراس .. الساعات التي يقضيها في حانوت أبيه الذي يعد فيه الشاطر والمشطور الكامخ .. هذه الساعات جعلته عفريتاً في الحساب كما يسميه أبوه ..

تخرج في السادسة صباحاً من بيتك .. ولا تعود إليه إلا في التاسعة ليلاً .. في هذه المدة لا تأكل إلا الشاطر والمشطور ، في بداية الأمر كنت تتلذذ بغذا ممتع . ولكن بعد انقضاء الشهر جمعت النقود من كل تلامذتك الذين يدرسون عندك ساعات إضافية ما عدا العفريت في الحساب .. مضى الأسبوع الأول ولم تنل منه شيئاً .. في اليوم الأول من الأسبوع الثاني ذكرته بأن يذكر أباه . خرج من المدرسة وعاد إليك بعد دقائق بنقودك كاملة غير منقوصة .. في منتصف النهار بعثت أحد الأطفال ليأتيك بالشاطر كالعادة فرجع ليخبرك بأن البطاطا قد نفدت وهو في انتظار الكمية من السوق . تذكرت أنك مررت أمام الحانوت صباحاً ورأيت أنه ينزل أكياساً عديدة مملوءة بطاطاً .. مستحيل أن تنفذ كل تلك الكمية في صباح يوم واحد .. ترقبت فأحسست بالجوع ينهش جوفك .. أرسلت طفلاً آخر فجاء يخبرك بأن الصبي في الدكان لم يعد بعد من السوق .. سألته هل الحانوت فارغ ؟

— كلا إنه ملآن بالزبائن .. وكل واحد يأكل طعامه .

ما طمعت قط في أن يعطيك طعاماً بالمجان .. كل يوم كنت تعطيه ثمن شاطره .. في المرة الثالثة أرسل لك حاجتك .. تناولت قزمة واحدة فاذا بمرارة تتسرب إلى فمك ، بحثت عن مصدرها فعثرت على زيتونة فاسدة نتنة .. ألقيتها وقضمت قزمة أخرى فاذا بجسم صلب كاد يكسر أحد أضراسك .. بحثت فاذا هي قطعة بطاطا محروقة قديمة جداً لا يدري أحد كيف عثر عليها صاحبها الذي أرسلها .. فتحت شاطرك لتفحصه فاذا هو صندوق صغير للقمامة .. ألقيته رغم أنك قد دفعت فيه ثمناً .. فجشأت على فراغ ..

في اليوم الموالي قررت أن تأخذ طعامك معك .. أحضرت لك زوجتك مرقاً كثيراً فيه جليان قليل .. وضعت الاناء في قفة .. وقفت صباحاً في محطة الحافلات .. وفجأة وجدت نفسك مدفوعاً بتيار بشري نحو باب الحافلة ، لم تتمالك توازنك وأردت أن تمسك بشيء فاذا بيد ممسكة بقفة الكراريس

والاخرى ممسكة بقفة مرق الجلبان .. وبسرعة ودون شعور واع منك القيت بقفة المرق .. واذا كانت الطاقة الهيدروكربونية هي التي تدفع بالطائرة في الجو وهي التي تدفعها الى الامام فان الطاقة البشرية المسلطة عليك من الحلف هي التي قادتك من الارض الى وسط الحافلة ..

صاحت غادة حسناء حين أحست ببرودة فخذيها :

- أوه ما هذا السائل الاحمر ..

ضحك شاب وقال كلمة وقحة ثم أعاد كلامها مقلدا :

- أوه ما هذا السائل الاحمر ..

انفجر كل من في الحافلة مقهقهها ضاحكا ، ثم لم يلبث أن وقعت جلبة كبيرة اذ أحس أكثر من واحد بأنه أيضا قد أصابه هذا السائل الاحمر .. صاح واحد :

- كسوتي .. كسوتي جديدة شريتها أمس فقط .. من لطخها بالمرق ؟
الله لا يبارك فيه .. الله يهلكه .. الله .. الله ..

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وكننت صامتا ، متقوقعا في مكانك بالوقوف طبعاً ، لا تنطق بكلمة ولا تنظر لأحد كأنك تخاف أن يكون أحد الراكبين قد تفتن الى أنك أنت الذي كنت تحمل المرق ولم يحرك فيك دعاء الرجل ساكنا .. فأنت غارق في أسوأ مما تمناه لك .. مصيبتك أنك سوف تبقى الى التاسعة ليلا بدون طعام .. زيادة على أنك قد فقدت القفة والاناء .. اذ ليس من المعقول أن تأخذهما أمام الناس حتى لا يمسكوا بك متلبسا ..

خلال الدرس شاهدت العفريت نائما وأصحابه منهمكون في انجاز تمرين .. اقتربت منه وأيقظته برفق .. فنهرك قائلا :

- دعني وشأني ..

أحسست بضآلتك .. في أعماقك نقمة .. كنت تود لو تكسر على جسده الغليظ عصا بأكملها .. لكنك صحت في وجهه :

- كفاك وقاحة .. انجز تمرينك ..

رمقك بنظرة ماكرة وانكب على دفتره .. جلست بالقسم جولة أولى وثانية ثم اقتربت منه وهمست فى أذنه :

- لماذا أتيتني بأجرة المراجعة ؟

قال لك بفظاظ :

- ألم تطلب مني ذلك ؟

- أنا .. معاذ الله .. إنما كنت أعني غيرك ..

وفى منتصف النهار جاءك شاطر عملاق ومشطور عملاق وبينهما كامخ عملاق فيه العناصر الغذائية الثلاثة .. ولم تستطع أن تكمله بل أخفيت منه جزء لتأكله قبل حصة المراجعة .. حين هممت بأن تعطيه الثمن لم تجده أمامك .. وفى حصة المراجعة مددت له الثمن فقال لك :

- أبى هددني بالضرب إن أنا أخذت مليما واحدا .

ومن يومها لم يبعث لك ولو مليما واحدا ثمن حصص المراجعة ، والحق أنه لم يأخذ ولو مليما واحدا مقابل ما يبعثه لك من غذاء ..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كنت قد ابتعدت عن محطة الحافلات فاذا بسيارة سوداء تقف أمامك ، نزل منها رجل يلبس ثيابا داكنة وأمرك بالصعود فى السيارة .. قلت له :

- عفوا .. ماذا صنعت حتى اصعد ؟

- بدون نقاش .. اصعد يعني اصعد ..

- خذ بطاقة تعريفى .

- قدمها فى المركز .

- أنا معلم .

- قل هذا فى المركز .

- حشروك فى السيارة حشرا وسط مجموعة من الرجال والشبان .. بينهم جلست امرأتان وجه كل منهما ملطخ بأصباغ غير متناسقة .. ورمقك الجميع بنظرات لم تفهم مدلولها .. كانت رائحة الحمر الردىء تسدح أنفك .. وبعد ساعة والسيارة تجوب الشوارع تلتقط كل من هب ودب لحشره معكم

وصلت بكم الى المركز .. كنت أثناء الطريق تتلو فاتحة الكتاب وآيات الكرسي وسورة الاخلاص والمعوذتين .. وأنت تردد الدعاء : اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

حين دخلت المركز كنت تردد في شرك طبعاً دعاء علمك إياه المؤدب وأنت صغير وقال لكم وقتها : إن هذا الدعاء ينفع عند الدخول على الحاكم .

كررت أكثر من مرة وقد كان ايجابى النتيجة .. تثبتوا من بطاقة التعريف ونظروا إلى القفة وحين وجدوا فيها الكراريس قالوا لك كلاماً لطيفاً مهذباً . لكن أحداً منهم لم يعتذر لك على الازعاج ..

وجدت نفسك أمام المركز .. الستة كيلومترات التى كانت تفصلك عن البيت صارت عشرة كاملة وصار استعمال التاكسي أمراً محتوماً .. ارتفعت فى التاكسي منهوك القوى وارتفعت فى فراشك دون أن تنزع ثيابك ..

فى صباح الغد أطراك المتفقد بأسوأ النعوت .. أنت متقاعس .. أنت كسول .. أنت لا تقوم بواجبك .. أنت نسيت أن الاطفال أمانة فى عنقك .. دفتر إعداد الدروس غير جاهز ليومه .. على من يقع اللوم ؟ على الجدد أم على من قضى سنوات طويلة فى المهنة .. الكراريس غير مصححة .. الله .. الله .. كان المتفقد يمطر بك بطعنات لسانه وأنت صامت منكس الرأس .. كنت تصرخ ولكن صراخك لا يتجاوز أعماقك .. كان الخوف جزءاً من ذاتك .. من يوم أن خلقت وأنت تخاف .. كنت تخاف أباك وعصاه الغليظة .. كنت تخاف أمك وأصابعها التى تقرص جسمك الغض فتترك فيه بقعاً زرقاء .. كنت تخاف مؤدبك والفلقة التى طالما انهالت على قدميك الصغيرتين .. البارحة خفت من الشرطي وهو يأمر بك بالصعود فى السيارة .. بعد أن صعدت خفت من الجالسين الذين رمقوك بنظرات مخيفة .. يوم فقدت مرقة الجلبان خفت أن يعلم الراكبون بأنك أنت صاحب المرق .. حين أحسست بطعم مرارة حبة الزيتون خفت من العفريت الكبير أبى العفريت الصغير فلم تعد بأجرة ساعات المراجعة .. واليوم أنت خائف من المتفقد .. الحجة بين يديه .. دفترك غير جاهز وكراريسك غير مصالحة .. لو نطقت بحرف واحد فسوف تحال على مجلس التأديب .. لو تكلمت ربما يقع إيقافك عن العمل بحجة أنك تتقاعس عن العمل .. أو ربما تنال نقلة عقاب تكون لك سبباً فى مصاريف إضافية ..

فضلت السكوت كما كنت تسكت أمام تقريع أبيك وكما كنت تسكت أمام
تأنيب مؤدبك .

عدت الى واقعك .. عدت تنظر الى فاتورة الكهرباء وفاتورة الماء والورقة
التي أرسلها اليك صاحب البيت مع العدل المنفذ طالبا أجرة شهرين متخلفين
في الدفع .. النقود التي كانت مخصصة للشهر الاول أعطيت جزءا منها الى
الطبيب والجزء الآخر أخذه الصيدلي .. مرض ابنك فأخذته الى المستشفى ،
بعد الكشف الطبي أعطوك نصف الدواء من المستشفى وسجلوا لك نصف
الدواء الآخر على وصفة لشرائه من الصيدلية .. الدواء الذي أخذته من
المستشفى لم ينفع فأجبرت على شراء النصف الآخر على مضض ، لكنه لم ينفع
أيضا .. حين اشتعلت الحمى في جسد ولدك التعزيز دفعت زوجتك الى الاستيلاء
على النقود المخصصة للكراسي لتأخذ ابنها الى عيادة خاصة أثناء وجودك في
المدرسة .. أحسست كأن رأسك يود الانفجار طلبت من زوجتك فنجان
قهوة .. دخلت المطبخ وعادت تعلمك أن قارورة الغاز قد نفذ غازها ..

زغرودة أمك لعلبت في الفضاء فاخترقت طبلة أذنك .. فرحت يومها
ووزعت المشروبات والحلويات على أصدقائك وجيرانك .. لكنك الآن أنت
تحس بهزيمتك .. حتى النجاح صار هزيمة .. الذي يبعث لك كل يوم غداك
ليست له حتى الشهادة الابتدائية .. لا يحسن ولو قراءة حرف واحد ..
لكنه يمتلك فيلا تحيط بها حديقة وله شاحنة الى جانب السيارة ، ولا تقلقه
أية فاتورة ولا يأتيه العدل المنفذ ..

قمت كالمجنون .. جمعت كل الكتب والكراريس والاوراق .. كدستها
وكل من في البيت ينظرون اليك باستغراب .. وأشعلت حريقا ..

وفي سكون الليل ملأ الحى الذي تسكنه صوت منبهات سيارات الحماية
المدينة .

عبد الوهاب الفقيه رمضان

الهذبه والعيفه

« ما افسى قلبك يالهذبه ! »
 « العيفه يهون عليك »
 « كي تسوكي يالهذبه ! »
 « وتكحلي عينيك »

وتشرئب أعناقنا الصغيرة تتابع « الزهروني » السقاء وهو ينقر بأصابعه على قاع الصحيفة المعدنية ويعيد بصوت أجش مبحوح رباعيته في اتجاه دار « الهذبه » .

كان - كلما مر أمام بابها في غلوه ورواحه بين الحنفية وبيوت أهل القرية يزودها بالماء للشراب وقضاء حاجاتها الأخرى - ينتصب بقامته الطويلة ويحك رأسه نصف الاقرع ويشد حزام سرواله الى وسطه ويعيد احكام خرقة لا لون لها ؛ اهترأت وبليت حول رقبتة ، ثم يدير عينيه في المكان ولما يتحقق أن « عم القادري » لا يحتبى أمام دكانه يتطارح والاسكافي العجوز قضايا « الحروب » بين « عباد الله » ، يسمر نظرات تستعر حقا على باب « الهذبه » . . . تنتفخ أوداجه وينتفخ منخراه وتنفرج شفتاه الغليظتان فتظهر أسنانه التي نخرها السوس والخمر ، وينطلق يردد للمرة المائة رباعيته التي انتقشت بذاكرة أهل القرية .

★ ★ ★

من منا ، سكان تلك القرية البسيطة الوادعة المتربعة عند منحدر التلة ، لم يحب « العيفه » ؟ ولم يتعلق به ؟ . . . في أنفه شموخ « جبال خمير » وفي عينيه اخضرار القمح والشعير والقصبية ، في سهول « باجة » صوته المترنم بالماويل لا يكمل يدغدغ أسماعنا في وضوح النهار وفي ساعات متأخرة من الليل . . . في نظراته صفاء الينابيع العذبة ونقاء السماء في مواسم الحصاد . . .

كنا- نحن صبية القرية - نستقيء طيبته بكل براءة الصبا ... فينصاع
 لرغباتنا كأم رؤوم وأب عطوف ، يؤم القرية مع اشراق الشمس تاركا خارجها
 بيته القصديرى عند أعلى التلة يتأبط فأساو مسحاة وحبالا وآلات أخرى مختلفة
 صدئت رؤوسها وتعفرت بالطين ... يمضى بقامته الفارغة فى خطى متتدة يلقي
 بتحية الصباح على كل من يعترضه ... يربت على هامات الصبية وينحنى ملاطفا
 شيخا قابعا تحت شلال الشمس الصباحى ، وان أسرع الخطو فلكى يحمل عن
 امرأة طاعنة فى السن سلتها أو ليزيح حجارة تتصدر الطريق أما اذا التقى
 «بالزهروني» السقاء ، فيخيم جو من المرح وتسربل البسمات شفاه الغادى
 الرائع لما يتراشقانه من مزاح وملح ... ما عرفنا «للعيقة» مهنة غير حفر
 الآبار وشذب الاشجار عند دخول «الليالى السود» .

ما كان أحلى الرضا الذى يشع من عينيه

لحين ما .. كان يبدو أسعد من فى القرية ... أسعد بكثير من مؤدبنا
 أيام الولائم

ARCHIVE

حتى جاءته «الهدبة»

قدمت الى القرية فى غضون الستينات لتقيم فى بيت ورثته عن أخيها ...
 وأعلمنا نساء القرية ثم رجالها - فيما بعد - أنها فقدت زوجها بحادثة «ساقية
 سيدى يوسف» صلبة الملامح ... دعاء العينين ... فى شئ من البدانة
 والطول .. تمتاز عن نساء القرية بكحلها الذى لم نصطبج بها بدونه أبدا
 أبدا وحرصها على شراء عود السواك من دكان «عم القادري» على الدوام
 كانت نضارة وجهها تنبئ بسن غير متقدمة ... فهى على كل حال أصغر
 من أمهاتنا

لم تعد «الهدبة» غريبة عن أهل القرية ... استأنسوها واستأنستهم رغم
 حرصها على أن لا تختلط بهم ... بيتها البسيط المسيح بالاسلاك يحاذى دكان
 «عم القادري» الامر الذى جعله يتطوع لتعهدها بالرعاية وحفظ متاعها ان هى
 تغيب لغرض ما

وأوصى «الزهروني» السقاء أن يكفيها حاجتها من الماء من ضمن نساء
 القرية

كان «عم القادري» يدير دفة الحديث بين مجالسيه أمام الدكان اذا تمايلت الرؤوس هامسة حينما تظهر «الهدبة» من الباب .

في الصبحيات الباردة المفعمة بعبق خبز الافران الطينية ورائحة الثريد المحلى بالسكر والسويق ، يتأخر مؤدبنا . . . فنجتمع نحن الاطفال عند سياج بيت «الهدبة» ويكثر هرجنا . . . وتدافعنا . . . فتتهنز لذلك الاسلاك المهترئة التي تحيط بحوشها الصغير يفزع الدجاج ويحدث بدوره جلبة من الداخل وتمضى الفراخ تتعثر فى أوانى وعلب تحفظها «الهدبة» بأحد الاركان . . . حتى اذا خرجت لنا ، علت عقيرتها باللوم والتقريع فيكتشف الجميع سلاطة لسانها وتحتدم باستخفافنا ومشاكساتنا حتى يهب «عم القادري» من صلاة الصبح المتأخرة ليحسم الموقف وقد بلغ ذروة الحساسية تعود اثر ذلك الهدبة تهش دجاجها الفزع ونعتصم نحن بباب الكتاب ننهى ضحكاتنا المكتومة

★ ★ ★

«العيقة» خطب «الهدبة» من «عم القادري»
ARCHIVE
.....

سرى الخبر أسرع من الأبخرة المتصاعدة بأقبية الحمام . . . تناقلته النسوة بين فارقة لجسمها فى ثققل وناضية لشعرها وأخرى دالكة لطفل يولول ، تشده بين ساقها وقد انسأها الخبر أن تدلق على وجهه المكسو برغى الصابون شيئاً من ماء

تهامست النسوة . . . وتباينت تعاليقهن :

«غريب وغريبة لا بأس أن يجمعهما الله فى الحلال !!»

«انها امرأة حوشيه ، كالحيوان البرى . . . تبدو شرسة الطباع . . وهو الهادى، الوادع الطيب . . . فكيف يتم ذلك ؟!»

« انها تكبره بكثير هزت عقله بحلي من ذهب تملكه وتخفيه عن الانظار . . . انها فى سن والدته !!»

« «الهدبة» جميلة يا نساء! . . . كلنا ندرك ذلك و «العيقة» وقع فى غرامها . . . فما يعينكن ؟! »

★ ★ ★

قالها «عم القادري» وجذب نفسا طويلا من لفافة التبغ التي أعدها لتوه وعاد يستنفض «العيقة» القابع عند عتبة الدكان :

– جن «العيقة» ... وقفت له «الهدبة» كالقدر الاسود والا هل يقعد عن طلب رزقه وكسب عيشه ... يا حول الله !

وضرب الرجل كفا بكف وحوقل وهو يشيع بوجهه عن بيت «الهدبة» المنفرج بابها وقد راحت دجاجتها تتبختر في الحوش الصغير .

★ ★ ★

أطل «الزهروني» بكتلته الآدمية الطويلة العريضة وألقى أمام دكان «عم القادري» عند قدمي «العيقة» بغأس ومذراة وحبال جلبها له من مقامه بآخر القرية واستحثه على كسب قوته

بسم «عم السبتى» المؤدب وهو يضع المزلاج الحديدي على باب الكتاب حيث كان يختل بنفسه مع كتب الفقه والسياسة وشمر أذيال برنسه وأردف : – انهض يا بني ! ... وقل : «ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري» وسيسهيك الله سبحانه ... ! انهض ! ...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قل كل كلمته وكان القول الفصل في سجل الغيب في صفحات المقدر فقط ظل «العيقة» صامتا .. في عينيهِ الخضراوين حديث لم يقله ... انصاع لمشيئة الكبار ... وهو من عهده الجميع يولى كلمة الكبار تبجيلا

جر نعليه نحو البيت الجديد الذي لا بئر فيه بعد

.....

استبشرت صاحبة الدار الجديدة وهي ترى العيفة عند الباب يجيب الطلب تراءت لها أشهر الصيف تصب حمما على البيوت وتراءت لنفسها تشد الحبل الى «الجرار» وتجذب السطل تلو السطل من قاع البئر . وتدفق الشلال البارد على الجليز والشبابيك وأصص النعناع والزيزفون ، وتبرد أنفاس الحيطان من القيلولة والشلال لا ينضب والحبل يغرغر في دورانه على الحلقة المعدنية نشيطا يهديها الماء من القاع

غير بعيد منها جلس صاحب الدار يعيد السؤال للمرة الالف «أين العيفة لما لم يظهر ؟.....» تساءل «عم القادري» وضع الزهروني صفيحتيه وانتصب يقطب حاجبيه يراوده السؤال ذاته في ذهنه

وتحركت القرية ، بيوتها ودكاكينها ، أزقتها وبطحاؤها وأحمرتها الصامته تطرد بذيلها الذباب المتكدس حول كدماتها

تحرك أهل القرية بخواطرمهم وتوجساتهم وهو اجسهم

تحرك «عم القادري» «وعم السبتى» حثيثا الى الدار الجديدة التف جمع حول البئر هاجس جماعى ينبىء أن الحفرة الغامضة تدرك أياها ادراك حقيقة مآل «العيفة»

★ ★ ★

كانت صلاة العصر حزينة ألقى الامام السلام ، ثم نهض وترك المسجد الى الصحن وعاد ليؤم من حضر لصلاة الغائب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان موكب ذلك المساء الحزين قد اغتال البسمة على شفاه الكثير وفى مآق ترقرت دموع وفاء

ظل البيت القصديرى فى أعلى التلة خارج القرية صامتا وقد انحسرت عنه خيوط الشمس المودعة للنهار المثقل بالاسى وانتهدت الريح حرمة الباب الصغير فتلاعبت به

أمام حوش الهذبة انتصب الفتى السقاء فى غير سحنته ازداد محجرا عينيه انتفاخا وازرورقت شفتاه الغليظتان وعبشت الريح بالخرقة التى تلف عنقه ورأسه فأنكشفت طلعتة وبقية شعيرات منقوشة من الخلف فى صوته ازدادت البحة حدة وتكسرت النبرات من الغيظ والحزن وراح يزأر فى سكون المساء :

« ما أقسى قلبك يالهذبه ، « العيفه ، يهون عليك ،
« تسوكي » يالهذبه ، وتكحلى عينيك ،

مسعودة ابو بكر

الأرض فى الكتابات القصصية التونسية (*)

لقد تناول الكتاب التونسيون بالدرس قضية الارض وصراع البشر فوقها ، سواء ضد المستعمر أو الجفاف أو السلطة الحاكمة . وأختلفت مواقفهم الفكرية وأدواتهم الفنية ونظرتهم الى العالم وتطورت ، خلال أربعة عقود من الزمن من واحد الى آخر . وسنحاول التوقف عند بعض المحطات المميزة توقفا سريعا لاستجلاء مواقف ستة مؤلفين وهم المسعدى والمطوى وحسن نصر وابن الشيخ وابن سالم والنالتوى من قضية الارض .

فقد استعمل **محمود المسعدى** أسلوب الرمز وجعل من وادى سد مارب والصحراء العربية فضاء أسطوريا للتعبير عن مكانة الانسان فى الكون ، يريد أن ينحت كيانه ويغير الاوضاع الفاسدة حوله . فقد صور المسعدى أرضا قاحلة مجذبة يعيش فوقها أشخاص خضعوا لظلم الحكام من بنى جنسهم ومن الاجانب واستكانوا المعتقدات غيبية وهمية: وقدم غيلان وأبوهريرة الى تلك الاقوام الذليلة وحثاها على تغيير مكانتها ودفعها الى العمل وخدمة الارض وتحويل السكون الى حركة والخضوع الى تمرد وعصيان .

واستطاع المثقف النخبوى الوجودى أن يثبت الارادة فى أرواح المجموعة وبدأ العمل الجاد وكاد ينجح . لكن قوى غيبية منعت من تحقيقه . فاذا بالسد يتهدم وينهار وبالجماعة تعود الى الحالة التى كانت عليها : تخلف وخضوع وتناحر . وانتهت قصة غيلان وأبى هريرة بالعروج الى السماء فى تجربة صوفية اسلامية مطلقة وكادا يلتحمان بالاله .

ان فكرة حرية الانسان فى نحت كيانه وتغيير أوضاع المجموعة التى ينتمى اليها فكرة صالحة اليوم ، ولكن فكرة الاقتصار على النخبة المثقفة فى عملية

(*) مدخل نقاش بمناسبة يوم الارض الفلسطينى نظمه نادى اتحاد الكتاب التونسيين بتونس فى مارس 1989 .

التغيير وانتهاء جميع الاعمال بالفشل فكرة وجودية كذبها التفسير التاريخي
للاحداث . فالعمل فى بلدان العالم الثالث «جماعى أو لا يكون» .

وتظل لغة المسعدى فى الادب العربى من أرقى الاساليب ، ومازالت كتاباته
محملة برموز كثيرة تكشف كل مرة عن معان جديدة . ولعل قوله «هذه الارض
العاقرة لاحبلنها» من أحسن ما قيل من استعارات .

ويمكن أن نعتبر **محمد العروسى المطوى** رائد الرواية الواقعية التاريخية فى
تونس . فقد صور فى ملحمة «حليمة» و«التوت المر» صراع الوطنيين التونسيين
ضد المستعمر الاجنبى الذى افتك الارض من اصحابها الشرعيين وشغلهم اجراء
فوقها والهاهم بتدخين المخدرات عن التفطن الى احوالهم البائسة وعن المتسببين
الحقيقيين فى ما وصلوا اليه من تخلف شامل .

ما ان علمت «حليمة» بسر مقتل أبيها ، حينما أراد قطف زهرة من أرض
أجداده لتقدمها لزوجها الحامل ، حتى تحولت البنت الى مناضلة وساهمت فى
الحركة الوطنية المسلحة ضد المستعمر .

وما ان تفتن سكان القرية الى خطر العدو فى نشر تدخين المخدرات حتى
قلعوا فى ليلة واحدة جميع النباتات المرة المزروعة فى حقوق الفلاحين وأحرقوا
دكان رجل متواطئ مع المستعمر .

وانتهت الملحمة بتخليص الارض من براثن العدو وارجاعها الى اصحابها
الشرعيين ليخدموها وكأن الاستقلال .

لقد مرت على الاستقلال ثلاثة عقود من الزمن وروايتا المطوى مازالتا تسجلان
فى الذاكرة الجماعية قصة الصراع ضد العدو وقصة التشبث بالارض وقصة
التمسك بالاصالة والاعتزاز بالانتساب للموطن . لكننا نلاحظ أن البطولة
ضخمت تضخيما لا يخلو من مبالغة أحيانا فى الروايتين .

ومع ذلك تظل الروايتان من أحسن ما كتب عن الريف العربى – بقطع النظر
عن الصراع ضد المستعمر – ففيها نجد تصوير عادات سكان الجنوب وتفاصيل
دقيقة عن حياتهم اليومية وأفراحهم ومجالسهم ونواديهم وأعمالهم ومزاحهم
ومآثمهم .

ويمكن أن نضع الروايتين في قائمة الروايات التي سجلت بطولات أهل الريف ووصفت تمسكهم الشديد بالارض ودعت النشء الى عدم التفريط في أى شبر منها . ومن تلك الروايات نذكر زينب لهيكل والارض للشرقاوى .

أما حسن نصر فمن جيل الاستقلال شرع يكتب فى بداية الستينات . وقد صور من خلال قصته القصيرة «ثور خلفه أبى» بأسلوب واقعي - نقدي بداية تحول المجتمع بعيد الاستقلال من نمط تقليدى الى نمط عصري ، وما نتج عن ذلك من صدمات ومعارضات عنيفة .

فقد أراد الشاب الريفى «منصور» أن يبيع الثور المتعب ليشتري مضخة ماء يشغلها محرك لسقي قطعة الارض الصغيرة لكن أمه مانعته فى ذلك رافضة التغيير : وهلك الثور واستعد الشاب للنزوح الى المدينة .

ان قصة الارض ذريعة للدعوة الى المعاصرة والعمل بمساعدة الآلة والى رفض الجمود الفكرى والتمسك بالتقاليد البالية والى التنبيه الى تحول العقلية عند الشباب . لم يعد الريف قادرا على تلبية رغباتهم فاتجهوا نحو المدن مخلفين الشيوخ والعجائز والاطفال على ارض الاجداد .

لقد تغير الريف التونسى عما صورته حسن نصر لكن القصة زاخرة بالمعاني الانسانية مضمخة بالتمرد الهادى . ولعل مشهد هلاك الثور من أرقى ما كتب فى الادب العربى .

وأما عبد القادر بن الشيخ فقد صور فى روايته «ونصيبى من الافق» المنشورة فى بداية السبعينات والتي تجرى أحداثها فى أواسط الستينات الجفاف المتواصل الذى أصاب الارض ، اذ لم تعد قادرة على اطعام سكانها وتلبية حاجيات الشبان والفتيات خاصة ، فنزحت فتاة الى العاصمة واشتغلت أول الامر خادمة ثم تحولت الى مؤمس تعرض جسدها فى الطريق انعام للحرفاء واشتغل الكهول فى حظائر البناء وسكنوا فى غرف ضيقة فى نزل متواضعة . ولم يجد الموظف ما يكفى لشراء ضروريات الحياة . وتاه الشاب النازح فى شوارع المدينة ونام فى أحد مساجدها . ولم يحقق حلمه فى العمل وربح المال والزواج من ابنة قريته .

انه المنزوح من الارض الى المدينة والبحث عن أعمال توفر المداخيل السريعة، ونشوء فئة جديدة من السكان هم العمال النازحون حلموا بالسعادة وهم في مواطنهم الاصلية لكن الحقيقة التي وجدوها خلاف ذلك وهي مزيج من الجهود الشاقة ، مقابل مال قليل ومن المتاعب النفسية ، بعيدا عن الاهل والاقارب والارض .

لقد نجح ابن الشيخ في كتابته القصصية اذ اعتمد واقعية نقدية ووسائل عصرية جدا في السرد : (الجرائد ، مقتطفات من الاذاعة ، التلصيق) واقتربت لغته أحيانا من الشعر . وكان بعيدا عن المباشرة وتقديم الحلول الجاهزة . وتعتبر رواية ابن الشيخ من أرفع ما كتب عن الارض .

وأما عمر بن سالم في روايته «واحة بلا ظل» فقد قوم تجربة التعاضد وعدد النقائص التي تسبب فيها المسؤولون ، وجعل من روايته شهادة حية عن تحول جهة الواحات من أرض معطاء فيها النخيل والغلل والظلال والاعتناء بالارض الخصبة الى ميدان صراع تطبق فيه القرارات السياسية الصادرة من العاصمة دون أخذ رأى المواطنين والنظر في مدى ملاءمتها الواقع . وقد قلعت أشجار النخيل رغم تمسك السكان بالارض وأدخلوا السجن وبدأ تطبيق مشروع التعاضد كرها وقسرا وفشلت تجربة التعاضد وعادت الارض الى أصحابها ولكن بعد فوات الاوان .

انها رواية تسجيلية من صنف الواقعية النقدية مزج فيها المؤلف بين قصتين احدهما عاطفية والثانية اجتماعية سياسية ، ونقد من خلاكهما وضعاً عرفته البلاد في أواخر الستينات . ولكن المؤلف نجح نجاحا نسبيا في الوسائل الفنية . فالاسلوب مزيج من التقليد الكثير والتجديد القليل والسود أحيانا رتيب وبعض الاحداث متكررة ، والمباشرة انقصت كثيرا من عملية التشويق وشد انتباه القارىء .

ولعل الرواية بطابعها التعليمي أصلح بالمطالعين الشبان والاجانب منها بالمطالعين العارفين بتاريخ البلاد وبوسائل القص الحديثة .

وتعتبر عروسية النالوتي من الكاتبات القلائل اللاتي لم يصورن تجربتهن النسائية الخاصة وانما اعتبرت الارض فضاء يعيش فيه الرجل والمرأة معا

ويعانيان من المتاعب التي جلبها النظام الرأسمالي للفئات الاجتماعية المسحوقة الكادحة .

فبينما ينعم الاثرياء بجميع مرافق الحياة فى ضواحي المدينة يعاني النازحون من أزمة السكن وتسلط اصحاب المصانع وجبروتهم . اختار بعض النازحين قطعة أرض فى حزام المدينة الفقيرة وبنوا عليها منزلا متواضعا بأنفسهم ورفعوا بناءه حجرة حجرة . لكن البلدية قررت ازالة الاكواخ . ورغم احتجاج السكان النازحين ورسائل الشكاوى الكثيرة التي وقعوا عليها وارسلوها عن طريق أحد الاثرياء الى البلدية ، تقدمت الكاسحة وهدمت الجدران المتواضعة وتركت السكان بدون مأوى لتبنى مكان الارض المنتزعة فيلات فخمة انها قصة الارض يملكها الاغنياء ويحرم منها الفقراء وقصة التفاوت الاجتماعى الحاد وصرخة فى وجه السلطة لتعتنى بضعاف الحال .

لغة النالوتى جيدة وأبطالها جماعيون وسردها متوتر العبارة حينما غنائى حالم أحيانا أخرى . لكن نظرتها للحياة لم تخل فى بداية كتاباتها من تعاطف شعبوى مع السكان ومن تقسيم مبسط للناس الى اخیار واشرار .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لقد جعل الكتاب التونسيون الارض فضاءا تصارعت فيه قوى متقابلة وأصناف متعادية من البشر وقيم وأفكار متعارضة (المستعمر والوطنيون – الجمود والارادة – الفلاحون والسلطة الحاكمة – سكان المدن والنازحون . . .) وقد تنوعت الاساليب من الرمزية الى الواقعية والواقعية النقدية .

وقد جسد الصراع بين تلك القوى المتقابلة أهم التحولات التاريخية والحضارية التي عرفها المجتمع التونسى خلال نصف قرن من الزمن تقريبا ، ولم يخل ذلك التغيير من مصادمات وعنفي فى المواجهة .

فقد سجل المطوى نضال الوطنيين وملحمة الاستقلال وصور حسن نصر وابن الشيخ نزوح أهل الريف الى المدن الكبرى وقوم عمر بن سالم تجربة التعاضد وأدانت النالوتى النظام الرأسمالى والتفاوت الطبقي الحاد .

أليست هذه أبرز المحطات التي مرت بها البلاد في تاريخها الحديث لكنه ليس التاريخ الرسمي للبلاد وإنما تاريخ أفراد الشعب المستضعفين ، عاشوا مآسى عديدة ومتنوعة وأصروا على الصراع من أجل حياة كريمة للتخلص من الفقر والخصاصة والتشرد وتشبثوا في جميع الاحوال بالارض وحتى وهم بعيدون عن الوطن الاصلى .

وان هذا الصراع وجه من وجوه عديدة أخرى من الصراع اليومي سواء في المدينة أو القرية أو في كليهما معا .

ولعل أهم الاضافات الجيدة التي أضافها الادب التونسي للادب العربي والعالمي بعض المشاهد والمواقف الانسانية التي تأزمت فيها الاحوال تأزما حادا أثناء مواجهة الاشخاص القصصيين قوى داخلية وأخرى خارجية .

ولن ينهى الصراع أبدا ما دام الانسان حيا على وجه الارض .

بواروى عجينة

تونس 26 مارس 1989 <http://Archivebeta.Sakhril.com>

أزمة البطل في رواية « الشحاذ » (*)

تتنمى رواية الشحاذ الى المرحلة الرابعة من مراحل تأليف الرواية لدى نجيب محفوظ والتي أطلق عليها النقاد أسماء مختلفة ، فعرفت بالمرحلة الواقعية الجديدة وبالمرحلة الذهنية والفلسفية . وذلك لاختلاف مضمون وأسلوب روايات هذه المرحلة عن روايات المراحل السابقة ، ولغلبة الطابع الفلسفى والذهنى على روايات هذه المرحلة . والتي تضم خاصة اللص والكلاب (1962) والسمان والخريف (1962) والطريق (1964) والشحاذ (1965) وثرثرة فوق النيل (1966) . كما يجعل محمود أمين العالم بداية هذه المرحلة من أولاد حارتنا التي كتبت فى أواخر 1959 . وكل هذه الروايات جادة بعد مرحلة انقطاع طويلة لدى الكاتب دامت سبع سنوات ليعود بعدها الى الكتابة من جديد بنظرة جديدة وأسلوب متميز .

تتميز رواية الشحاذ اذن بغلبة الطابع الفلسفى فأين نحن من الرواية الواقعية التي اشتهر بها نجيب محفوظ فى المراحل السابقة ، اذ حلت الافكار الذهنية المجردة والاطروحات الفلسفية والوجودية خاصة محل الشخصيات وصراعها فى ما بينها ، كما عوضت العقدة الروائية بقضايا فلسفية فاخفت الجزئيات واختفى الاسلوب المباشر والوصف الدقيق للناس والاشياء وأصبح الصراع بين فكره وفكرة وفى ذات الفرد نفسه .

هذه الرواية هى رواية البطل الواحدة المحورى أو الرئيسى الذى تحوم حوله كل الاحداث وكل الشخصيات ، ونظلم نتتبع فى هذه الرواية مسيرة البطل وهو يتحرك فى الاطار الزمانى والمكانى ولا هم لنا الا أن نقف آثاره ، ولا قيمة للشخصيات الاخرى ولا وجود لها الا بمدى ارتباطها بشخصية البطل .

(*) نجيب محفوظ : الشحاذ . ط . 2 . دار القلم . بيروت 1977 .

البطل فى هذه الرواية هو عمر الحمزاوى محام ناجح وكبير حقق ثراء كبيرا ونجاحا باهرا ، تقتر همتة ويكره العمل والبيت ونفسه ، يصاب بمرض لا يعرف ما هو فيترك الدنيا ويهرب من الناس ومن ذاته ويهيم على وجهه طالبا الوقوف على شر الوجود وكنه الاشياء .

هذا البطل لا يقدمه لنا نجيب محفوظ دفعة واحدة ولا بطريقة فنية واحدة ، بل تتبلور هذه الشخصية وتكتمل فى أذهاننا شيئا فشيئا عبر مسار الرواية .

وتعرفنا على هذه الشخصية سيكون من منظورات مختلفة ومن دون تسلسل منطقي بل فى نوع من التداخل وعدم التوازي . تساهم مختلف الشخصيات فى تقديم جوانب مختلفة لشخصية عمر الحمزاوى بالإضافة الى الكاتب الراوى وبالإضافة الى البطل نفسه الذى يطلعنا على جزء كبير من حقيقة ذاته .

لو استقصينا الاحداث وأعدنا ترتيبها مستفيدين من المعلومات المختلفة للشخصيات المختلفة فى هذه الرواية لامكننا رسم الملامح التالية لهذا البطل .

ملامح البطل : <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

هو عملاق بأتم معنى الكلمة ، يقول له الطبيب ذلك ويضيف : « كنت طويلا جدا وبالامتلاء صرت عملاقا » (ص 6) . فهو سمين جدا كأنه « مدير شركة من العهد الحالى ولا ينقصه الا السيجار » (ص 6) . وهو ذو « وجه أسمر مستطيل ممثلي » له حاجبان كثيفان ، وشعر أسود غزير « لا ترى شعيرات سوائفه البيضاء الا بعد البصر » (ص 8) وله أنف طويل حاد . يقدر عمره بخمس وأربعين سنة فهو كهل فى مقتبل العمر .

فى ما يتعلق بأسرته ومنبته الطبقي لا نعرف عنه الا كونه ابن موظف صغير وهو حلقة من « سلسلة طويلة من آبائه وأجداده تهرأت أقدامهم من معاندة الارض ثم تساقطوا من الاعياء » (ص 28) .

قبل أن يمتهن عمر المحاماة وقبل أن يثرى كان طالبا فى الجامعة ضمن مجموعة من الرفاق يؤمنون بالاشتراكية ويسعون الى تحقيق سعادة الجماهير

ويعملون على الاطاحة بالنظام القائم . الا أن عمر كان يظهر الى زملائه «بأكثر من وجه فهو الاشتراكي المتطرف والمحامي الكبير» ويضيف الطبيب مخاطبا عمر «ولكن وجهها منك رسخ في ذاكرتي أقوى من أى سواه هو عمر الشاعر» (ص . 16)

كان عمر شاعرا . ولكنه أهمل الشعر بل يعتبره «عبث طفولة لا أكثر ولا أقل» .

احب زينب زوجته وكان ذلك منذ عشرين عاما (ص . 35)

فتزوجها مكسرا بذلك التقاليد التي تقف حائلا بينه وبينها لاختلاف الدين بينهما .

وأصبحت له بنتان . بشينة الشابة اليافعة والمتفوقة في العلوم والتي ورثت عنه الشعر . وجميلة التي مازالت تمارس البدايات الاولى للتعبير الشفوي .

لعمر صديقان : مصطفى المنياوي . كان اشتراكيا أيضا وأصبح صحفيا نابها في الاذاعة والتلفزيون يبيع « اللب والقشار » كما يحلو له أن يقول دائما . يعتبر أن العصر عصر علم وأن الفن قد انتهى أمره ولا مجال الا للتسلية والتهرج .

الصديق الآخر هو عثمان خليل دخل السجن منذ عشرين سنة وكان سيجر معه عمر ومصطفى المنياوي لولا صموده وعدم اعترافه فالصديقان مدينان له بحريتهما وسراحهما . يشغل عثمان حيزا من تفكير عمر الحمزاوي ، وهو حاضر أبدا رغم وجوده في السجن الى ان يفرج عنه بعد انقضاء هذه المدة .

ماضى عمر كما يتجلى من خلال تقنية التداعي الحر والذكريات المتقطعة التي نخامر البطل تبين الوجه الايجابي لهذا البطل وذلك أيام كان طالبا وأيام كانت تتقد فيه شعلة الشباب .

يدفعنا كل هذا للوقوف عند هذا البطل الايجابي في الرواية .

البطل الايجابي :

كان عمر الحمزاوى أحد ثلاثة جمعت بينهم الصداقة والجامعة والمبادئ السياسية وهم : عمر الحمزاوى ومصطفى المنياوى وعثمان خيل «ولكن رأس الحماس كان عثمان خليل بلا جدال» (ص 17) .

كان الرفاق الثلاثة يؤمنون بالاشتراكية ويحلمون بالمدينة الفاضلة وبدولة الجماهير ، فكانوا يعملون فى شبه خلية تعمل على تقويض الحكم القائم قبل ثورة 23 جويلية 1952 . الا أن عمل هؤلاء الرفاق لم يكن عملا منظما ولا جماهيريا بل كان عملا شبه معزول أقرب الى الارهاب السياسى منه الى العمل الحزبى المنظم .

يقول عمر الحمزاوى وهو يحدث نفسه «واندفعنا برعشة حماسية الى أعماق المدينة الفاضلة ، واختلت أوزان الشعر بتفجيرات مزلزلة . واتفقنا على ألا قيمة البتة لارواحنا» (ص 31) . كان هذا عندما هتف عثمان يوما فى نوع من التجلى «عثرت على الحل السحري لجميع المشاكل» (ص 31) . هذا الحل السحري هو اكتشاف قانون جاذبية جديد «غير جاذبية نيوتن يدور حولها الاحياء والاموات فى توازن خيالى لا أن يتطائر البعض ويتهاوى الآخرون» (ص 31) .

ذلك هو قانون الصراع الطبقي وقانون الجدلية التاريخية التى تسعى الى تحرير الانسان من أخيه الانسان والقضاء على الاستغلال والاستيلاء .

وفى نوع من الومضة الورائية وبأسلوب يعبر عن كثير من التداخل وعدم التوازي يطوى بنا الكاتب مما يزيد على العشرين عاما كان قد قضاها عثمان خليل فى السجن ليلتقى بصديقه ورفيقه عمر الحمزاوى عندما يدخل عليه فجأة وتحملهما الذكريات الى آخر عهدهما ببعضهما . آنذاك أصابت القرعة عثمان فقال مرجها كلامه الى عمر : «أنا سعيد ، مصطفى عصبى وأنت عريس وغدا تلقى قبلة على خنزير من المولعين بمص الدماء» (ص 164 - 165) ، وتنجح العملية لولا رصاصة طائشة أصابت عثمان فى ساقه فقبضوا عليه وتكسرت الخلية تلك «القبضة من حديد» ، وخاف عمر ومصطفى أن يقبض عليهما ففكرا

فى الهرب أو الاختفاء . ولكن عثمان لم يعترف و«كان فوق مستوى الانسان»
وهاهما مدينان له بحياتهما .

واتسمت السنوات التى تلت القبض على عثمان وآخرين بالعنف والارهاب
كما يصرح عمر مضيافا : «فلم يكن بد من أن نركن الى الصمت ، ثم انشغل كل
بعمله وتقدم بنا العمر على نحو ما . ثم قامت الثورة وانهار العالم القديم»
(ص . 166) .

تلك هى الدورة الفلكية المعاكسة التى عبر عنها عمر فى موطن سابق والتى
انتقل فيها من «خلال الحزن والفشل الى المقاعد ، وارتقى العملاق بسرعة فائقة
من الفورد الى الباكار حتى استقر أخيرا فى الكاديلاك ثم أوشك أن يفرق فى
مستنقع من المواد الدهنية» (ص . 31) .

وبعد كل هذا فقد أصبح عمر مقتنعا - ولو ظاهريا - بأن العالم القديم قد
تقوض وبأن الثورة الحقيقية قد قامت وبالتالي تحقق الحلم . كما لا يتوانى فى
التصريح أن الثورة «تشق طريقها بعقلية اشتراكية حقيقية» (ص . 168) .

ويرد عمر على سؤال عثمان عند لقائهما بعد عشرين سنة عندما خاطبه:
«صارحنى يا عزيزى أما زلت مؤمنا كما كنت» (ص . 168) ليجيب بعد تفكر
ملى : «كذلك كنت حتى قبيل قيام الثورة ، فلما أن قامت الثورة اطمأن بالى
تم أخذت أفقد الاهتمام بالسياسة وأولى وجهى وجهة أخرى» (ص . 169) .

هذه هى السقطة الاولى للبطل الايجابى وهى نفس السقطة التى سقطها
مصطفى المنياوى الذى قرر نبذ الفن والذى تخلى عن السياسة وبدأ يبيع
«اللب والقشار عن طريق الصحف والاذاعة والتلفزيون» فى الوقت الذى لم
يعد فيه للفن معنى ، وقد انتهى عهده وانقضى وأصبح العصر عصر تسلية
وتهريج ، وهو يرى أن من الحكمة أن يهتم الفرد بأعماله «ما دامت الدولة
تحتضن المبادئ التقدمية وتطبقها» (ص . 123) ، وطالما «أن الدولة الآن اشتراكية
مخلصة وفى هذا الكفاية» (ص . 178) .

تلك هى الردة وتلك هى طبيعة البرجوازية الصغيرة المثقفة سواء كانت
داخل السلطة أو خارجها .

الا أن البطل بطل متشبثا بالوجه الآخر لعمر أو لنصفه الثانى عثمان خليل الذى لم تزد سنوات السجن الا وعيا واصراراً وإيماناً «بالعقل والعلم والعمل» والذى لا يزال يعتقد أنه يعمل «للانسانية جمعاء لا للوطن وحده» والذى يبشر «بدولة الانسان» .

يخرج عثمان خليل من السجن الى الدنيا فى الوقت الذى يخرج فيه عمر الحمزاوى من الدنيا الى عالم مجهول .

ويبقى عثمان بعد خروجه من السجن على مواقفه القديمة بل هو يعتبرها «ضرورة حتمية» ، ويرى اذا كان مصطفى قد تغير «فلا يعنى هذا أن الحقيقة يجب أن تتغير» (ص ١٧٨) وهو لا يزال يرى ان «الانسان امة أن يكون الانسانية جمعاء واما ان يكون لا شئ» . ورغم قربيه من عمر الحمزاوى ومن عائلته فى الوقت الذى كان يغادر فيه هذا الاخير الدنيا يقترب عثمان خليل أكثر من بثينة ابنة عمر ويتزوجها وينجبان طفلاً يسميان سميماً .

ويطارد البوليس عثمان فى الوقت الذى كان يعيش فيه عمر بين الحقيقة والوهم وبين الواقع والخيال ليقبض عليه فى نفس المكان الذى أسلم فيه عمر نفسه للهلوسة والخيالات وليحملاً فى نفس السيارة ليساق عثمان خليل الى السجن ثانية ولإعادة عمر الحمزاوى للدنيا من جديد .

وبهذه النهاية لعل نجيب محفوظ ينهى الوجه المتبقى والمكمل للبطل الايجابى ليحكم عليه بالفشل والهزيمة .

هذا البطل لا نجده فى هذه الرواية فقط بل نجده فى روايات أخرى لنجيب محفوظ والتي تنتمى الى هذه المرحلة وخاصة فى «الرص والكلاب» . ولعل هذا البطل بقدر ما يعكس طبيعة البرجوازية الصغيرة العربية المثقفة بقدر ما يعكس وجهة نظر الكاتب أيضاً وتصورات فى ما يتعلق بمفهوم الثورة وقضية التحرر الوطنى والاشتراكية . فما هى حقيقة هذه الاشتراكية وما هى الوسائل الكفيلة

بتطبيقها ؟ وما هي طبيعة العمل الذي يجب أن يتوخى لبعث دولة «العقل والعلم والعمل» ؟ وما هو دور الجماهير في بناء دولة الجماهير ؟ تلك أسئلة لا بد من طرحها وهي وإن كانت تتعلق بالواقع المعيش أكثر مما تتعلق بالرواية كفن لدى نجيب محفوظ ، بيد أن الكاتب ليس بمعزل عن هذا الواقع وهو ليس خلوا من مواقف وآراء . كل هذا يجعل البطل الايجابي حتى في أرقى أشكاله النضالية : النضال المسلح (حتى وإن كان غير منظم) بطلا انهزاميا يسقط في الخيبة والهزيمة .

بطل الهزيمة :

بعد أن تحققت الثورة وبعد أن أصبحت «الدولة الاشتراكية» واقعا ملموسا تبخر الحلم الكبير ، حلم عمر الحمزاوي ومصطفى المنيأوي وأصبحت أيام السياسة والاضراب والمدينة الفاضلة في عداد الماضي وفي طي النسيان . ولا شيء غدا مشتركا بين عمر الحمزاوي وعثمان خليل الا «تاريخ ميت» . هذا الماضي الذي أصبح عمر الحمزاوي يكرهه كرها شديدا بل يطبق عليه فيقطع أنفاسه . هذا الماضي الذي ينتظره عمر حتى يخرج من السجن «فيتضاعف عذاب الوجود» «وسوف تتلاش الاعين في دهشة مزعجة» (ص 122) .

هذا الماضي بوطأته هو الذي نقض حياة عمر فأصبحت صورة عثمان خليل كالهاجس يسكنه ويتلبس به ، وكالضمير لا ينفك يضنيه ويقض مضجعه ولم يعد بمقدور عمر الحمزاوي أن يفر أو أن ينفصل منه ، وغدا يعاني المرارة ويتجرع الهزيمة وهو ما عاد قادرا على أن يتمسك بمبادئه ومعتقداته ولا استطاع أن يطلقها ويتخلص منها بعد أن تحول من شق الى شق في عملية الصراع الاجتماعي وبعد أن تحول من طبقة الى طبقة ، من طبقة المستضعفين الى طبقة الاثرياء . وهكذا تحول من مرتبة البرجوازية الغارقة في الدسم .

يعيش الحمزاوي حياته ولكنه لا يتوقف لحظة عن التفكير «فيمن ازدردده السجن» (ص 51) ويبلغ به الحد الى الحزن والاسى والعواطف المتضاربة .

ان هذا الماضي الذي يتجسم في عثمان خليل ، ما هو في حقيقة الامر الا ماضى عمر الحمزاوي أو جانب من جوانب شخصيته بل وجه من وجوها ،

هو الوجه النضالى والحماسى (فى فترة معينة) ، هو مبادئ الثورة والاشتراكية ودولة الانسان التى سرعان ما تتنكر لها البرجوازية الصغيرة عندما تتحول من مواقع الرفض والفعل فى حركة التحرر الى مواقع الدفاع عن مصالحها ومصالح الطبقة التى ترتقى اليها .

أما مصطفى المنيأوى فهو الوجه المكمل الآخر لشخصية هذا البطل المهزوم ، الا أنها شخصية أكثر وقاحة وصلافة ، فلا أسف لها على ما فات . ينفذ المنيأوى يديه من السياسة والاشتراكية كما نبذ الفن ليصبح مؤلفا وصحفيًا نابها يستولى على اعجاب آلاف من النظارة والمستمعين . وغدت رسالته فى الحياة «التسلية والتفريغ» . ويقص مصطفى المنيأوى حياته على عثمان خليل عند لقائهما بعد سنوات السجن الطويلة «بصراحة واستهانة وجرأة غير متوقعة» (ص 177) .

مصطفى المنيأوى وعمر الحمزاوى وجهان متناقضان لشخصية واحدة ، شخصية بطل الهزيمة : أحدهما يرهقه ثقل الماضى ويضنيه فلا هو بقادر أن يتنقل منه فيطلقه ويستريح ولا هو بقادر على التمسك به ويتنازل عن مصالحه الطبقية والفئوية . والآخر لا أثر لهذا الماضى فى حياته البتة فلا هو يضنيه ولا هو يتنكر له بل يذهب أبعد من هذا فيفلسف الامور والواقع كما يحلو له بكل استهانة واستخفاف .

ان هزيمة عمر الحمزاوى كبطل فى هذه الرواية لا تنتهى عند هذا الحد - مقارنة بصديقه مصطفى - بل انها ستتلوها سقطات أخرى مما يجعله يمر بأزمات حادة وعنيفة بل خطيرة ستجعل منه بحق بطل الخيبة والقطيعة .

بطل الخيبة :

لعل بؤادر الشعور بالخيبة بدأت تظهر عند عمر الحمزاوى عند اقتراب انقضاء مدة السجن بالنسبة لعثمان خليل والتى يوشك أن يلتقى فيها الصديقان وجها لوجه الشئ الذى كان يؤرق عمر ويضنيه بل يخفيه ويجعل نومه كابوسا لا يطاق . يقول عمر لنفسه : «وقريبا سيخرج الماضى من السجن فيتضاعف عذاب الوجود» (ص 28) .

هذا الشعور انتاب عمر فجأة وبدأ يدب في جسمه كالنار التي تاكل الهشيم ، وهو يتوجس خيفة من الماضي والحاضر ، وبدأت تصيبه حالة من الخمود الغريب ، ففقرت همته وماتت رغبته في العمل وكثيرا ما بدأ يضيق بالذنيا والناس بل حتى بالاسرة نفسها وبدأ يحس كأن شيئا في داخله «ينهار ويتهدم وأن كل شيء بدأ يتمزق ويموت» .

هذه الحالة والتي اعتبرها الطبيب «مرضا برجوازية» لم يجد لها هذا الاخير دواء الا الاعتدال في الطعام والتقليل من التراب والالتزام برياضة المشي مشيرا على عمر أن يأخذ اجازة طويلة موصيا اياه : «وعليك ان تنقص وزنك عشرين كيلو ولكن على مهل ودون عنف» (ص 15) .

وعمل عمر الحمزاوى بتوصيات الطبيب فخف وزنه ودبت الحياة في جسمه من جديد ليعود الى عمله ولكن من دون أن يتخلص من ذاك الداء الذي بدأ يلتهم أشياء أخرى في حياته أعز عليه من العمل كما يقول : زوجته وبيته وكل ما يحيط به وهو ما يؤد التخلص منه .

ماذا يريد البطل ؟ لا شيء على وجه التحديد ماعدا أنه أحس بخمود غريب جعله يبحث عن شيء غير مدركه فانبعثت في نفسه «أشواق غامضة الى الكتب القديمة التي هجرها منذ عشرين سنة» (ص 69) ، فعاد يحاول كتابة الشعر والاكثار من قراءته وجمع في بيته أشعار الهند وفارس وبلاد الشرق وذاب في الروحانيات ، وأخذ يبحث عن نغمة ضائعة سرعان ما تجمدت وبدأ يلهث وراء الحب والجنس واللذة والشهوة : بكل ألوانها ومذاقاتها . وبدأ يطوف الملاهى الليلية باحثا عن الجمال كعلاج لهذا «الداء الطريف الذي ألم به» (ص 75) . وبدأ يستعيد «شباب الزمن الخالي» وكأنه يعاني من عقدة مراهقة متأخرة فعرف مرجريت و«نبض وجدانه بشوق غريب غير محدود وتلهف غامض كالذى يساوره في آخر الليل» (ص 86) . وحاول أن يخاطب الاعماق من دون وسائط بحثا عن لذة منشودة لا تتحقق .

ثم لا يلبث أن يرتبط بوردة وتغلق بينهما مودة وحب كبير ، ويزوب معها في عشق شرقي وكأنه يعيش حلما من أحلام «ألف ليلة وليلة» . فيجهز لها بيتا على أجمل صورة و«أنفق بلا حساب كأنه يتخلص من ورم مالى» (ص 95) .

وبدأ عمر الحمزاوى فى عشه الجديد يشعر بالسعادة أو بدا له كذلك ، وبدأت حياته كحياة شحاذ متسول فى الليل والنهار ، «فى القراءة المجذبة والشعر العقيم» (ص ١٠٩) . ثم لا تلبث أن تفقر همته وأدرك فى الاخير أن «نشوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر» وأصبح فى كل ليلة «يذهب بامرأة من هذا الملهى أو ذاك أو حتى من الطريق» (ص ١٣٨) . تلك هى حياته وتلك هى خيبته ذاقت من جرائها عائلته الوليات ، كما لم يفلح صديقه مصطفى فى أن ينتشله منها . وكان لا بد له مثلما قال لنفسه يوما «من شىء . الشىء أو الجنون أو الموت» (ص ١٣٩) .

هذه الخيبة وهذه الهزيمة وهذه الحياة المنهارة فى داخله هى التى ستدفعه الى مرحلة القطيعة ، القطيعة مع الآخرين ومع الاشياء ومع كل ما يمت بصلة الى العالم الخارجى .

بطل القطيعة :

مثلما هو الحال بالنسبة للتجربة السابقة سيعيش عمر الحمزاوى هذه التجربة منفردا ، ومثلما وقف الى جانبه مصطفى المنيأوى فى تجربة الحبيبة سيقف الى جانبه فى هذه التجربة عثمان خليل الخارج من السجن .

بدأت هذه التجربة عندما انقطع - عمر - عن مغامرات الليل الخائبة، (ص ١٥٨) وعندما أصبح قادرا على الخروج والسهرة بمفرده ، وعندما قرر العودة الى البيت بعد ان هجره طويلا . «العود الى البيت دون تغير» لا كراهية لزينب ولا حبا لها . واختفاء الكراهية دليل على اختفاء زينب نفسها ودليل انتصار نهائى على دنياها» (ص ١٥٨) كما يقول .

اعتكف بعدها طول الليل فى حجرته يقرأ ويتأمل باحثا عن الرحمة والسعادة مناجيا الكون فى صمته الرهيب وهو يتطلع الى الافق من خلال شرفته . ويقرر عمر الحمزاوى اعتزال الدنيا والناس فيعزم على الرحيل طالبا الحلو الى نفسه ، وتفشل أسرته كما يفشل مصطفى وعثمان فى صده عن عزمه . وأقام عمر فى بيت صغير يشبه الكوخ فى ما يشبه الغاب محاطا بكثير من أشجار السرو .

ويعيش عمر حالة من الهلوسة يبدو فيها كأنه يخاطب كائنات غريبة وأشباحا مربعة ومفزعة .

أكثر الكاتب من الحوار الباطنى وأكثر من الحديث الى نفسه تارة بضمير المتكلم وأخرى بضمير المخاطب كما انتفى عنده مفهوم الزمان وقضى على كل الفواصل والحواجز المكانية فى نوع غريب من التداعى الحر . كان يصور له ذهنه فيها خيالات وأشباحا لا صلة لها بالواقع . وقال عمر لنفسه : «عندما يظفر قلبك بضائته سيجد نفسه خارج أسوار الزمان والمكان» (ص. 197) . كان يريد للسرور أن يغيب من حوله ، وكان يريد لاشجان الليل أن تسكت ، كان يريد التخلص من ذكرى الماضى ويستأثر بالاشىء ، وكان يريد أن يستقبل شعاع النشوة الوردى بلا وسيط ، وكان يريد أن يسد بقوة المجهول الى قبة السماء هنالك لن يعرف قلبه النوم ولا حواسه الصحو (ص. 197) . هكذا كان مطلبه وتلك هى غايته .

بدأ عمر يخلط بين الواقع والخيال وبين الحلم والحقيقة ، فكانت تمر أمام عينيه وجوه عثمان ومصطفى وبشينة وزوجته زينب وكان يجرى مع هؤلاء حوارا غير معقول . وكان فى كل مرة يستفيق فيها من حلمه يتنهد فى اعياء ويقول فى نفسه : «ماذا يعنى الحلم الا أننى لم أبرأ بعد من نداء الحياة» (ص. 200) . وظل على هذه الحالة طويلا وهو ينتظر أن يتحقق الحلم المنشود .

وينتهى مقام عمر الحمزاوى وتنتهى تجربته هذه عندما يلتجئ الى عثمان خليل وهو مطارذ من طرف الشرطة ، ويجرى حوار بين الطرفين ، حوار عقيم لا فائدة منه ، ينتهى بالقبض على عثمان واصابة عمر الحمزاوى خطأ لتقلهما سيارة واحدة تحمل الاول الى السجن وترجع الثانى الى الدنيا .

يقص علينا عمر الحمزاوى ما حصل له ولعثمان فى ما يشبه الوعي التام مستعملا صبغة الماضى ومتحدثا بضمير المتكلم مما يدل على أن زمن القص وقع بعد أن خرج البطل من مخنته وبعد أن عاد ثانية الى الحياة .

ويبقى سؤال يطرح نفسه كيف عاد عمر الى واقعه ولماذا ؟ وما هو مصير عثمان خليل ؟

هل نظل نعول على أبناء هذا الجيل من أبناء حركة التحرر الوطني العربية ،
هذا الجيل الذي رسم للبرجوازية الصغيرة العربية مسارين :

– أحدهما هو الانشغال بالحياة والاهتمام بالشؤون الخاصة والمصالح
الفردية الضيقة .

– والآخر التمرد والعصيان المعزول عن حركة الجماهير في نضالها الدؤوب
والانتهاء الى السجن دون فائدة ؟ أم أننا نعول على الجيل الجديد جيل سمير
حفيد عمر الحمزاوي وابن عثمان خليل وبشينة اللذين يمثلان التزاوج بين
الارادة الثورية وحب التغيير من ناحية والعلم والشعر من ناحية أخرى ؟

تلك هي المسألة وذاك هو السؤال المطروح على نجيب محفوظ ككاتب وعلى
البرجوازية الصغيرة العربية المثقفة وعلى قوى حركة التحرر الوطني العربية
بصفة عامة .

عبد الحميد عبد الواحد

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

(*) نجيب محفوظ : الشحاذ . ط 2 . دار القلم . بيروت 1977 .

المراجع :

غالي شكري : المنتمي – دراسة في أدب نجيب محفوظ دار المعارف بمصر .
ط 2 . القاهرة 1969 .

فؤاد القرثوري : ثنائية المعرفة / النكرة في رواية «الشحاذ» لنجيب محفوظ
الحياة الثقافية . العدد 38 . تونس 1985 .

محمود أمين العالم : تأملات في عالم نجيب محفوظ . الهيئة المصرية العامة
للتأليف والنشر 1970 .

مصطفى التواتي : فن الرواية الذهنية لدى نجيب محفوظ . مطبعة تونس
قرطاج . تونس 1981 .

الفكر العربي المعاصر (عدد خاص) : وجه البطل في الرواية المعاصرة
العدد 34 1985 . مركز الانماء القومي – بيروت .

أنغام القلق فى قصة « حتى لا يضيع الحلم » خديجة الجوينى

قراءة نقدية

عالم «خديجة الجوينى» الذى تؤسسه بكتاباتها يزخر بالاحلام والرؤى ذات الشفافية الاخاذة . هو عالم يفتح على الطفولة أنينا لا ينقطع الا ليعود أشد قسوة وأعتى عصفا .

وبقدر ما يرتسم فى مساحاته من كآبة ، يتسلق الشعر تضاريسه فيأتى الواقع أكثر سحرا وأقوى جاذبية بفضل قدرتها على النفاذ الى هذا الواقع بطريقة فذة قصد استجلاء خصائصه اللامرئية .

عندما أهم بقراءة أحد نصوص «خديجة الجوينى» أشعر أننى أستقبل شيئا أحبه أو كائنا أرغب فى لقائه . فالكتابة عندها تنبض ، وتعيش ، ولها مشاعر وعواطف الكائن الحي .

أفتح قلبى وأتهيا للقراءة . أنسى أننى أتعامل مع نص مركب من جمل تخضع لترتيب منطقى ولغوى صارم . أنسى أننى أتعامل مع مجموعة من الرموز لها دلالاتها وأبعادها حسب ما يسمح به النص . تنسينى كل ذلك حرارة الكتابة ودفق المشاعر التى تطفح بها كل جملة ، والمساحات الملونة التى تتراعى لفكرى وقلبى . تحملها لهما كل كلمة وكل سطر .

الكتابة عند «خديجة الجوينى» تعبد له طقوسه الخاصة ومن لا يتمثل تلك الطقوس لا يستطيع النزول فى عالمها ولو ضيفا عابرا . مساحات الجمال فى كتاباتها لا تكشف عن سحر أسرارها الا متى اغتسل الراغب فى النزول فى عالمها من رجس النظرة البسيطة الكسولة للأشياء ليتوغل فى تفاصيل ما كان

ليراها لولا أن قاداته اليها تلك الكتابات التي لا تكتفى بوصف الواقع من الخارج، بل تتغلغل في جوهره لترسمه من الداخل .

... واقعية «خديجة الجويني» كما تبدو من خلال قصتها «حتى لا يفر الحلم» الصادرة في العدد 80 من مجلة «قصص» (أفريل - جوان 1988) التي يصدرها نادى القصة - النادى الثقافى «أبو القاسم الشاذلى» لا تحفل بالاحداث اليومية التي تتألف منها حياتنا العادية بقدر ما تحاول الغوص فى عمق اللحظات ذات الحميمية المطلقة التي تتعري فيها الشخصية من كل زيف لتمارس حياتها بتلقائية وعلى انفراد «انشغل باحساسه ... نسي ما كان يذكره جيدا ... وتذكر ما نسيه تذكر مواضع أخرى ... وتذكر نساء يفقدن النضارة بيسر عجيب ... واتسعت خلاياه للحزن والقلق ... واستيقظت الاصداء تتجاوب ...» فى القصة أصداء تتردد وتكشف عن جانب من شخصية البطل الذى يتوسل للجدّة المتوفاة كي تنفض غبار الايام وتأتى :

« قد توسل الى جدته أن تقطف أزهار السماء وتأتى

قد يقدران معا على خلق مسرة للسمر ...»

<http://Archivebeta.sakhril.com>

«لو تنفض الجدة غبار الايام وتأتى»

«لو تنفض الجدة غبار السنين وتأتى مع الفجر أكثر نضارة ...»

أطياف الماضى تحوم فى ليل رجل يواجه الوحدة القائمة والارق الفظيع ، فيحن الى وجه جدته التي كانت تملأ ليلاليه سمرا وحكايا .

يحن الى الماضى والى الطفولة والى ليلالى الشتاء بجانب جدته التي كانت مصدر دفئه .

«كانت ليلالى الشتاء من اللحظات الفريدة . كانت دقائق فاتنة الدفء ... تشده الى رداء الجدة والليل ... وكان الليل يمدّه بأسرار النعيم ... لا يدري أين غارت كل تلك الاشياء التي كانت تحولها الجدة الى كنوز ثمينة ...»

حضور الجدة كان أكبر كنز تعلق به البطل ، وبزواله انعدمت الافراح وحل زمن آخر لا مجال فيه للفرح .

«انقلبت الايام باهتة الوهج ، تباعدت الاعياد ، أقفرت الدروب من الاطفال ٠٠٠ وفقدت الحجرة ما كان يدعوها الى أن تظل عامرة ٠٠٠ ومرت الريح تكنس المعابر والممرات وترش الصمت ٠٠٠»

يأس مدمر هذا الذى يقع بطل خديجة الجويني تحت تأثيره ، والمشاعر التى غشتها القتامة أبواب موصلة فى طريق المسرات .

«فى السرير لم يعثر على شئ أنقى من زمن الطفولة ٠٠٠٠ الغى الحرمان بتسلطه الدائم أبسط المسرات ٠٠٠٠»

الليل الصديق تحول الى سرداب موحش خال من كل الافراح التى كانت تغمر قلبه وهو يستمع الى حكايا الجدة وينعم بدفء حضورها .

رحلت الجدة وانطفأ وهج الطفولة وتلاشت الاسمار التى كانت تنشر البهجة فى أشد الليالى قسوة .

لم يبق من الليل سوى الظلام ، ومن ذلك الطفل الذى كان سعيدا بجذته وطفولته وأشياء أخرى كثيرة ، سوى نفس تنفتح للحزن وتمنح أوراقها للخريف :

«مد أصابعه يتحسس دائرة الوجه ٠٠٠ غاصت أصابعه ٠٠٠ أخاديد عميقة حرثتها السنون تنحدر الى مستوى النحر ٠٠٠٠ شيخوخة باكرة تهدم الخلايا ٠٠٠»

أى خريف هذا الذى يأتى سابقا لوانه ؟

وكيف «مات نسخ الاعواد» وتجردت أغصان القلب من الخضرة ؟

أية خيبة فى هذه الحياة يمكن أن تؤدى الى هذا الاحساس الحاد بالمرارة ؟ هناك تعقيم يمنع وضوح الرؤية ، الليل ينتشر بغموضه فى فضاءات القصة .

وبقدر ما تستهويننا الالوان الليلية التى تنسج عالما هو فى نهاية الامر عالم خديجة الجويني ، وبقدر ما نستمتع بالأصغاء الى وشوشات السكون القاتم الذى تنمو فيه الرؤى وتسكنه الاخيلة والاحلام ، يصدنا الكتمان ، فيكون مألنا كمال بطل القصة الذى «وجد نفسه مصلوبا على جدار الليل ، لا يفصح عما يريد ٠٠٠ قد يكون لا يريد شيئا على الإطلاق ٠٠٠»

لا أنكر أن كتابات خديجة الجوينى على درجة من الشفافية وأنها بأسلوبها الشعرى ، ترسم فضاءات تميل اليها النفس ، لكننى أحيانا أجدنى أبحث فى قصصها عن أفكار سرابية تشعل فتيل الحيرة فى صدرى .

أعيد قراءة النص مرات ، أتوغل فى تفاصيله وألامس مواطن الجمال فيه ، أبحث عن شئ يطفىء نار حيرتى ، لا أحصل على الماء . بطل القصة يستقبل الحزن والقلق والوحشة .

ماذا حدث ليهجر قلبه وبيته الفرح ؟ لماذا تأبى المسرات أن تزوره وتخرجه من وحدته ؟

القصة لا تجيب عن هذه التساؤلات التى تمس جوهر العمل القصصى الذى يختلف عن الشعر فى هذه النقطة . (أعنى الإجابة عن التساؤلات) .

فاذا كان الشعر تعبيرا عن حالة شعورية ولا يحتاج لكى يكتسب صفة الشعرية - الى التبرير ولا الى منطق السببية لانه يكتسب جمالياته من عناصر أخرى ، فان الكتابة القصصية مجال لتطبيق السببية اذ ان لكل حركة يقوم بها الانسان سببا أو دافعا سواء أكان هذا الدافع نفسيا أو اجتماعيا أو عضويا . والكتابة القصصية كذلك تحتاج الى التبرير ، لا على الطريقة العلمية وانما بأسلوب فنى ينسجم مع روح القصة . . والتبرير فى العمل القصصى أعمق من السببية لانه هو الذى بواسطته يحدث الانسجام فى القصة وتتوفر أسباب الاقناع .

وأنا أسأل خديجة الجوينى ما الذى دفع ببطل قصتها الى القلق والحزن ؟

الرجل حزين ومتبرم بالحاضر ، يحن الى الماضى ولا ينفك يذكر جده وحكاياها التى تبعث الدفء فى أوصاله فى ليالى الشتاء . والكاتبة لا تكشف لنا عن أسباب مقنعة لهذا القلق القاتم الذى يجثم على صدر الرجل . ولو فعلت لكانت القصة أمتن بناء وأعمق مضمونا وأكثر اقناعا .

يبدو أن البطل خاض تجربة قاسية جعلته يذكر الماضى بحسرة ويحن الى زمن الطفولة . ورغم قسوة الحياة عليه «لم يصادف أن يتحول الى شرس» . . فهو رجل مسالم يعيش مع نفسه وأشياءه الصغيرة أكثر من حياته مع الناس يفضل الليل لممارسة وجوده بحرية .

فهو قليل التجربة مع الآخرين .

وقد يكون ذلك هو السبب الخفى لهذا الحزن الغامض الذى يحاصره ربما كان يشعر بأنه سلبى ويريد - ولو فى أعماق اللاوعى - التحرر من هذه الصفة ومن مرارة الحاضر وأحزانه ومن الليل الذى يمنع مجيء الفجر الجديد فلم يفقد الأمل فى الآتى وظل ينتظر الضياء : «أحصى المباهج أياما آتية»

«تمنى لو تمتد كف تزيج الظلام وانحدر يسأل عن الفجر . الانتظار حاد أحس بحاجة أكيدة الى شمس أكبر من شمس الطفولة»

وحتى لا يكتسح الخريف جميع المساحات فى صدره ، تصالح مع خيباته وخرائب عمره وانطلق يرسم الخطوات القادمة فى حياته : «حقد فى خرائب» أكد ابتهاجه .. واطمأن الى كونه سيد الفضاء .. قال ما لم يقل للليل الجاثم والصقيع وأوت اليه أحلامه السابقة عاتبة

وأطل الصباح يحمل النور والأمل مع طلوع الشمس ، يعود الابتهاج الى قلب البطل ، فيخرج من حالة الحصار التى فرضها عليه الليل وتنتفى أسباب القلق والتبرم بالحاضر دفعة واحدة ، وتسرى دماء الحياة فى روحه متدفقة وهاجة تبدد الأفكار السوداء التى كانت تعمر صدره .

كيف حدث كل هذا ؟ وأية قدرة سحرية منحتها الشمس لصاحبنا فاستطاع بواسطتها التخلص من مخالب الغم الثقيل الذى كان جاثما على قلبه .

خديجة الجوينى لا تحب أن تخوض فى التفاصيل ، ربما تعتقد أن ذلك يجعل القصة شديدة الالتصاق بالواقع وفاقدة لقيمتها الجمالية ، اعتبارا أن الفن لا يرسم الواقع كما هو وإنما يقدم تفسيرا ذاتيا لهذا الواقع وهو لذلك ، يترك التفاصيل للمختصين بتحرير التقارير الدقيقة .

ولئن أصابت فى هذا الفهم المحتمل منها ، ونسجت مساحات فيها الكثير من الشعر - وهو أساسى فى كتابة القصة القصيرة لما يضيفه عليها من غموض لطيف ومن تلوينات وصور تستعذبها النفس فقد تكون أفرطت فى الاعتماد على الشعر فى مواطن تتطلب وضوحا أكثر لان ذكر بعض التفاصيل أمر لا بد منه فى الكتابة القصصية ، حتى لا يتحول النص الى لوحات شعرية فاقدة لمقومات القصة .

فى قصة خديجة الجوينى مساحات ، وأحب أن أستعمل هذه العبارة لاننى أشعر وأنا أقرأ لهذه الكاتبة الشابة ، أننى أتعامل مع لوحات تشكيلية تتناغم فيها الظلال والاضواء وتتشكل مساحاتها وفق انسجام ينبض بالشعر والجمال . وهذا الشعور نابع من فهمى للقصة القصيرة بالمقارنة مع اللوحة التشكيلية من الناحية الفنية أو البنائية ؛ فكما أن الرسم يحتاج لتكتمل الهرمونيا الى الخطوط المتضادة والمساحات المتفاوتة الاحجام والمختلفة الاشكال والى المراوغة بين الازياء والتعتيم وتوزيعهما بفن فان القصة - لتكون ناجحة - تحتاج الى العديد من التقنيات حتى لا يقع الكاتب فى السرد والتقرير ، وتكون كتابته رتيبة ، ولكن التقنيات وحدها قد ترد فى القصة باردة لا نبض فيها اذا لم تمنحها تجربة الكاتب الذاتية وثرأ جوهره الحياة والحرارة المطلوبتين .

فى قصة خديجة الجوينى مساحات تحتاج الى مزيد من الازياء ، لان الغموض فى المواقع التى تتطلب الوضوح أمر غير مرغوب فيه .

فى البداية تقول الكاتبة «تفاصيل كل ما حدث لا تزال عالقة بذهنه أخبار الرجال الذين قرأ عنهم فى الكتب جعلته يقارن ويفكر فى المصير ...»

عن أية أحداث تتحدث الكاتبة ؟ ومن هم الرجال الذين قرأ عنهم ؟ لا شئ يمنع الكاتبة من ذكر بعض هذه الاحداث ما دامت لا تزال عالقة بذهن بطلها . ولو فعلت لكانت حجتها فى الاقناع بسلوك هذا الرجل أقوى .

وفى النهاية تقول الكاتبة «ولكن الاخبار الواردة عن الرجال الذين أخذتهم عرائس الاحلام تجعله يفكر من جديد ... وحين يفكر لا مناص له من ارتكاب الحماقات حلق فى خرائبه ... أكد ابتهاجه ...»

تنتهى للقصة غامضة أكثر من البداية ، فالرجل كان واقعا تحت تأثير قلق وحزن شديدين وكان متبرما بالحاضر ، فاذا به يبتهج ويستقبل الحياة بوجه آخر أكثر انشراحا .. ومع ذلك فلا أملك الا أن أحب هذه القصة وأعيد قراءتها مرات /

منور النصرى

القصرين

قصة : خوان رولفو
ترجمة : أبو بكر العيادى

الرحيل إلى « تالبا »

تداعت « ناتاليا » بين أحضان أمها وانخرطت فى نشيج هادى طويل لقد استطاعت أن تحبس دمعها وتخزن حزنها أياها ولكنها ما كادت ترى أمها حين عدنا الى « سنسونتلا » حتى انهارت مدفوعة بحاجة ملحة الى العزاء .

قبل تلك اللحظة، حين شرعنا فى دفن « تانيلو » فى ناحية من أراضى « تالبا »، لم يكن ثمة أحد لمساعدتنا . استجمعنا قوانا بعد أيام طويلة من الشقاء والتعب ونبشنا الأرض بأيدينا . كنا نقاح قطع الطين الصلبة بأصابعنا ونحن نتعجل مواراة « تانيلو » كي لا يزعج أحدا برائحته التى ينتضح منها الموت . فى تلك اللحظة لم تذرف دمعاً واحدة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كأنما جاءت الى حضن أمها لتبكي ، لتسرب اليها حزنها ، لتشعرها أنها تتألم ، وفى نفس الوقت تنغص عيشنا جميعا . أنا أيضا تسرب الى نفسى نشيجها وأحسست أنها تعتصر خرقة ذنوبها ، ذلك أننا أجهزنا على « تانيلو » - أنا و « ناتاليا » ، أخذناه الى « تالبا » ليلقى حتفه ، ولقيه . كنا على يقين أنه لن يقدر على تحمل مشقة الطريق ، ورغم ذلك جررناه جرا - أنا وهي - لكي نتخلص منه نهائيا ، وهو ما حدث .

كانت فكرة الرحيل الى « تالبا » قد صدرت عن أخى « تانيلو » ، راودت ذهنه قبل ان تخطر ببال واحد منا . منذ سنوات وهو يلح فى الذهاب هناك . منذ سنوات . . منذ ذلك اليوم الذى فتح فى فجره عينيه على دمل أزرق يغطى ذراعيه ورجليه ، قبل أن يتحول الدمل الى قروح انبجست منها بدل الدماء مادة صفراء تشبه المطاط اللزج تنز ماء دبقا . مازلت أذكر أنه حدثنا عن تخوفه من انعدام الهواء ، ورغبته فى زيارة « عذراء تالبا » لتشفي بنظراتها قروحه . ورغم أنه كان يعلم أن مدينة « تالبا » بعيدة وأن بلوغها يقتضى قطع مسافات طويلة

سيراً على الاقدام تحت شمس مارس وبرد لياليه . ورغم ذلك أراد الذهاب .
 ستهبه «العذراء» دواء يخفف تلك الاشياء التي لا تجف اطلاقاً . «العذراء» تعرف
 كيف تطهر الاشياء وكيف تعيد الامور الى سالف حالها ، مثل حقل غسلته
 الامطار . حين يمثل بين يديها ، هناك ، فى «تالبا» ستزول همومه وتنتهى
 آلامه . ذلك ما اعتقده «تانيلو» ، وما دفعنا - أنا و«ناتاليا» - الى حمله .

كان من واجبي أن أرافقه فهو أخى ، وكان على «ناتاليا» أن تصحبنا لانها
 زوجته . كان عليها أن تساعد وتسنده الى ذراعها ، وتحمله على كتفها فى
 الذهاب وربما فى الاياب أيضاً وهو يجر آماله .

كنت قد فهمت ما يجول بذهن «ناتاليا» منذ زمن فهمت أشياء كثيرة .
 فهمت مثلاً أن ساقىها القويتين الساخنتين مثل حجرين تحت شمس الظهيرة ،
 كانتا وحيدتين منذ زمن طويل . كنا قد اختلينا ببعضنا بعضاً فى مناسبات
 عديدة ، ولكن ظل «تانيلو» كان دائماً يفرقنا . كنا نحس أن يديه المتقرحتين
 تحولان بيننا وترجوان «ناتاليا» أن تواصل العناية به . وأن الوضع سيبقى
 على حاله لو ظل أخى على قيد الحياة .

أعرف الآن أن «ناتاليا» نادمة . وأنا أيضاً ندمت . لكن هذا لن ينقذنا من
 تبكيت الضمير ، ولن يهنا لنا بال حتى وإن كنا نعلم أن «تانيلو» ميت لا محالة
 هنا أو هناك ، وأن أجله حان . لن نشعر بالراحة حتى ونحن نعلم أن المشاق
 التى تكبدها والدماء التى فقدها ، والغضب الذى استنفد طاقتة تسببت كلها
 فى التعجيل بموته ، فقد دفعناه دفعا حين عدل عن مواصلة المسير وأصر أن
 يعود . حملناه حملاً حتى يواصل السير وقلنا له انه لم يعد بإمكاننا ان نعود
 الى الورا .

قلنا له ان «تالبا» أصبحت أقرب من «سنسونتلا» ولكن «تالبا» لم تلح بعد .
 كانت بعيدة ، دونها مسيرة أيام وأيام .

كنا نريد له الموت . هذا ما أردنا فعلاً ، حتى قبل أن نغادر «سنسونتلا» وفى
 كل ليلة قضيناها فى الطريق الى «تالبا» . لا أفهم الآن سبب اصرارنا ولكننى
 أذكر أننا رغبنا آنذاك فى موته .

أتذكر تلك الليالي جيدا . كنا نوقد أعواد الصنوبر ، وبعد أن يغطي الرماد النار أتسلل أنا و «ناتاليا» بحثا عن ظل يحجبنا عن ضوء السماء . كنا نتمدد على الحقل بعيدا عن أنظار «تانيلو» . كانت تلك الوحدة تدفع أحدهما نحو الآخر ، تدفع الى ذراعى جسد «ناتاليا» الباحث عن عزاء ، فتحس بعد ذلك بالراحة كأن أشياء كثيرة انمحت من ذاكرتها ثم تغمض عينيها وتغوص فى نوم عميق .

وشاءت الصدف أن تكون الارض التى اعتدنا الاستلقاء عليها دائمة الدفء . وكان جسد «ناتاليا» زوجة أخى «تانيلو» يسخن فى لمح البصر نتيجة لذلك . وإذا اجتمعت الحاراتان فانهما تحرقاننا وتطردان النوم عن أعيننا . ذاك ما كنا نفعله - أنا و «ناتاليا» - على جانبي الطريق المؤدية الى «تالبا» عندما أخذنا «تانيلو» الى «العذراء» لتخلصه من العذاب .

الآن وقد مات ، يمكن أن ننظر اليه نظرة مختلفة . «ناتاليا» تبكى عليه الآن بحرقة ، ربما لكى يرى - حيث هو الآن - الندم الذى يجثم على صدرها . قالت انها أحست بوجه «تانيلو» فى هذه الايام الاخيرة . كان الجزء الوحيد الذى يمكن أن نحس . وجه عليه حبات دائمة من العرق ناتجة عن جهده فى مغالبة آلامه . قالت انها أحست بوجهه يقترب من فمها ويندس فى طيات شعرها متضرعا بصوت متعب كى تساعد . قالت انه أخبرها أنه شفى تماما وتخلص من كل أوجاعه «الآن يمكن أن أكون معك يا «ناتاليا» . ساعدينى كى أكون بجانبك» قالت انه قال لها ذلك .

حين غادرنا «تالبا» بعد أن أهلنا عليه التراب فى باطن تلك الحفرة التى واريننا فيها جثته ولم توجه اليها «ناتاليا» كلمة واحدة . نسيتنى تماما منذ ذلك الحين . كانت عيناها تومضان مثل غديرين انارهما ضوء القمر ، لكنهما سرعان ما انطفأتا وانمحت نظراتهما . كانت كأنها لا تبصر شيئا . كان العالم انحصر فى «تانيلو» الذى حبته بعنايتها فى حياته ووارته التراب بعد موته .

★ ★ ★

ظللنا نبحث عن الطريق الرئيسية المؤدية الى «تالبا» عشرين يوما . قبل ذلك كنا نسافر وحدنا نحن الثلاثة ، ولكننا بدأنا نختلط بأناس جاؤوا من شتى الانحاء . كانوا قد وصلوا مثلنا الى تلك الطريق العريضة التى تشبه نهرا قوى التيار ، يدفعنا الى الامام ويطوح بنا فى جميع الجهات كأننا مقيدون . كانت

الاقدام تشير فى مشيها الغبار ، وكان العجاج يرتفع عاليا ثم يهبط الى الارض من جديد فتعيده الاقدام الى السماء مرة أخرى وهكذا ظل التراب فوقنا وتحتنا طول الرحلة . كانت السماء خالية وكان علينا أن ننتظر الليل لنستريح من لفح الشمس ومن ضوء تلك الطريق الذى كان يعشى البصر . وصارت الايام تتمدد شيئا فشيئا . كنا قد غادرنا «سنسونتلا» فى منتصف فبراير ، والآن حل مارس وصارت الشمس تطلع باكرا ، وكنا لا نكاد نغمض أعيننا حين يجن الظلام حتى تعود الشمس لايقاظنا ، تلك الشمس التى تبدو أنها غربت منذ برهة .

لم يراودنى الاحساس يوما بأن الحياة يمكن أن تكون أكثر بطئا وأشد قساوة حين يضطر المرء الى السير وسط جمهرة من الناس ، كأنها ديدان تتلوى بين الشمس والعجاج الذى سد كل المنافذ ، وراح يجرفها فى اتجاه واحد دون مقاومة . كانت العيون تلاحق العجاج وتصطدم به دون أن تتمكن من اختراقه كانت السماء رمادية مثل كتلة ثقيلة تسحق هاماتنا . حين عبرنا أحد الانهار كنا نغطس رؤوسنا الحامية فى المياه الخضراء ، فيصاعد منها دخان أزرق يشبه البخار الذى يلفظه المرء فى أوقات البرد ، ولكننا كنا سرعان ما نعود الى العجاج يحمى بعضنا بعضا من لفح الشمس ومن الحرارة التى كانت قدرا مشتركا بين الجميع .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

سيجىء الليل . كان تفكيرنا منحصرا فى ذلك . سيحل الليل وسنخلد للراحة . أما الآن فعلىنا أن نقضى النهار ، أن نجتازه بكيفية أو بأخرى حتى نهرب من القيظ ومن الشمس . وبعد ذلك نتوقف . أما فى الوقت الحاضر فعلىنا أن نبذل جهدا متواصلا لكى نلحق بسرعة بالآخرين الذين سبقونا ونسبق آخرين خلفنا . ولا داعى للتفكير فى الراحة لاننا سنرتاح كما نشاء حينما نفارق الحياة .

هذا ما جال بخاطرنا - أنا و «ناتاليا» وربما خامر «تانيلو» أيضا ونحن فى طريقنا الى «تالبا» وسط الحشد الساعى ، تحدونا رغبة فى أن نكون أول الوافدين الى «العذراء» قبل ان تنفذ المعجزات .

لكن صحة «تانيلو» كانت فى تدهور مستمر . ذات مرة لم يشأ أن يلزم مكانه فتشقت قدماه وسالت منهما الدماء . ظللنا نرعاها الى أن تحسنت حاله

فقال انه لم يعد يرغب فى مواصلة الرحلة . قال لنا : «سأمكث هنا يوما أو يومين ثم أعود الى «سنسونتلا» . عارضنا هذه الفكرة - أنا و «ناتاليا» بشدة . شىء ما بداخلنا منعنا من الاشفاق على «تانيلو» كنا نريد أن نوصله الى «تالبا» لان الحياة لم تكن قد فارقت بعد رغم استفحال مرضه ورغم المسافة التى قطعناها . كانت «ناتاليا» تشد أزره وهى تنظف بالكحول قدميه اللتين انتشرت فيها الاورام ، وتذكره بأن «عذراء تالبا» أفضلهن جميعا . ذاك ما كانت «ناتاليا» تقول له . وكان «تانيلو» يجهش بالبكاء فتكسو الدموع وجهه المعروق ، ويلعن نفسه وسوء طويته . وكانت «ناتاليا» تمسك دموعه بشالها ثم تساعدنى على حمله ، فنقطع مسافة أخرى قبل ان يهبط الظلام وهكذا حتى وصلنا الى «تالبا» .

فى الايام الاخيرة ، تعبنا كثيرا وشعرنا بجسدينا يضران وأحسنا كأن شىئا ينقض ظهرينا بأوزار لا قبل لنا بها ، لكن الناس الذين كانوا يتقدمون ، اضطرونا الى حث خطواتنا والتحمل على جسدينا المتعبين .

حين يجن الظلام تسكن الحركة وتتناثر النار هنا وهناك فيتجمع الحجاج حولها ويرددون دعاءهم وهم مستلقون على ظهورهم ، يتأملون السماء باسطين أذرعهم كالصلبان . كانت الريح تروح وتجىء بدعائهم فتحيله الى أنين متجانس سرعان ما يطبق عليه الصمت ، ثم يدغدغ أسماعهم غناء قادم من بعيد ، قبل ان يغمضوا عيونهم فى انتظار طلوع فجر جديد دونما ندم .

★ ★ ★

بدأنا الرحلة فى منتصف فبراير ووصلنا الى «تالبا» فى أواخر مارس حين بدأ بعض الحجاج الذين سبقونا يشدون الرحال للعودة لم يكد «تانيلو» يرى الرجال حوله يحملون سياطا من الصبار حول رقابهم حتى أراد ان يفعل مثلهم . أوثق قدميه بكى قميصه لكى يصبغ على مشيته بأسا أكبر ، وأراد أن يضع على رأسه اكليلا من الحسك ، ثم شد عصا به على عينيه وجثا على ركبتيه ويداها مكتوفتان خلف ظهره . ودخل «تالبا» ذلك الشىء الذى هو أخى «تانيلوسانتوس» ذلك الشىء المملوء بالدمل والقروح وخيوط الدم الداكنة ، والذى تنبعث عند مروره رائحة كريهة مثل الجيفة .

ورأيناه يمضى الى حلقات الرقص . وقبل أن نتبين جلية الامر كان قد بدأ كأنما كان ينفذ عن نفسه الغيظ الذى استبد به منذ وقت طويل ، وكأنه كان يبذل آخر ما تبقى له من قوة كى يمدد عمره قليلا . لعله تذكر - عند رؤية حلقات الراقصين - تلك السنين التى كنا نذهب خلالها الى «توليمان» للاحتفال بمرور تسعة أيام على وفاة المسيح ، حيث كان يقضى الليل فى الرقص حتى نهن عظامه دون كلل . لعله تذكر ذلك وأراد أن يحيى أوان عنفوانه . رأيناه - أنا و «ناتاليا» - على تلك الحال دقيقة واحدة ، رفع على اثرها ذراعيه وهوى على الارض والصنجة فى يده تقطر دما . سحبناه من حلقة الراقصين حتى لا تدعسه اقدامهم المتوترة التى كانت لا تبالي بالحجارة التى تحتها وتتحاصر ساحقة التراب دون أن تتفطن أن شيئا سقط بينها .

سحبناه وأدخلناه الى الكنيسة . أركبته «ناتاليا» حذوها أمام ذلك التمثال الصغير الذى يمثل «عذراء تالبا» ، وراح «تانيلو» يصلى وقد ترقرت فى احدى عينيه دموع ضخمة ، خرجت من أعماقه ، وأطفأت الشمعة التى كانت «ناتاليا» قد وضعتها بين يديه ، لكنه لم يتفطن الى ذلك لكثرة أضواء الشموع المعلقة داخل الكنيسة . مضى يصلى بصوت عال وشمعته المنطفئة بين يديه ، حتى يسمع صلواته بنفسه . لكن ذلك لم ينفعه فقد مات على أية حال .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

«... من قلوبنا ينبعث تضرع واحد مغلف بالآلام ، شكاوى عديدة ممزوجة بالامل ، لا تصم حنوها أمام نواحنا ونحيبنا فهى تتألم معنا . تعرف كيف تمحو هذه الذنوب وتجعل الفؤاد يصفو قبل أن يتقبل رحمتها وغفرانها . عذراؤنا ، أمنا التى لا تريد أن تعلم شيئا من ذنوبنا ، التى تتحمل وزر خطايانا ، التى تريد أن تحضننا بين ذراعيها كى لا تؤذينا الحياة . ها هى ذى هنا ، قريبة منا تخفف التعب والمرض عن نفوسنا وعن أجسادنا الواهنة المكثومة المتضرعة . انها تعرف ان ايماننا يزداد بمرور الايام لانه مصنوع من التضحيات ...»

ذاك ما قاله الراهب من أعلى منبره . حين أنهى حديثه ارتفعت حناجر الناس بالدعاء فى وقت واحد ، وعلا ضجيجهم كالزنابير التى يحاصرها الدخان لكن «تانيلو» لم يكن يسمع كلام الراهب . لقد ظل بلا حراك ورأسه يتدلى على ركبتيه ، وعندما هزته «ناتاليا» لينهض كان قد فارق الحياة .

فى الخارج كانت ضجة الراقصين بطبولهم ومزاميرهم وصنوجهم متواصلة فى تلك اللحظة بدأ الحزن يتسرب الى نفسى . من جهة كانت تلك الاشياء

التي تنبض بالقداسة والحياة قريبة منا تمنحنا ابتسامتها ، ومن جهة ثانية كان «تانيلو» عائقا أمامنا . كل ذلك جعلنى أشعر بالغم .
لكننا حملناه الى «تالبا» لكى يموت ! هذا ما لا يمكن أن أنساه أبدا !

★ ★ ★

ها نحن قد عدنا الى «سنسونتلا» دون «تانيلو» لم تسألنى أم «ناتاليا» عن
عن أى شىء ، عما فعلته بأخى . كانت «ناتاليا» تذرف الدمع على كتفى أمها
فحككت لها بتلك الكيفية عن كل ما حدث .

أحسست كأنما لم نصل بعد الى أى مكان . كما لو كنا نستريح لوقت قصير
قبل أن نعاود المسير ، لا أدري الى أين ، ولكن ينبغى أن نواصل السير ،
فالندم وذكرى «تانيلو» لا يفارقانى فى هذا المكان .

ربما صار كل واحد منا يخاف من الآخر ، فما معنى هذا الصمت الذى أطبق
علينا منذ ان غادرنا «تالبا» . لعلنا شعرنا معا بقرب جسد «تانيلو» الممدد فى
الحصير الملفوفة ، والمحاط فى الداخل والخارج بأكوام الذباب الازرق الذى
يطن بشكل يومئى أن شخيراً قويا يصدر من فمه الذى لم نستطع غلقه رغم
جهودنا نحن الاثنين ، ذلك الفم الذى بدا كأنه يطلب قليلا من الهواء ، دون
جدوى . ربما شعرنا أننا قريبان من جسد «تانيلو» الذى لم يعد يؤله أى شىء
رغم أنه بدأ متألما ، بقدميه ويديه المربوطتين ، وعينيه المفتوحتين كما لو كان
ينظر خلالهما الى موته ، والقروح هنا وهناك تفرز قيحا أصفر تفوح منه تلك
الرائحة التى انتشرت فى كل مكان وملأت الحلق بطعم عسل ثخين مر يذوب فى
الدم مع كل نفس من الهواء .

هذا ما نتذكره فى أغلب الاحيان : «تانيلو» الذى دفعناه فى «تالبا» وواريناه
التراب والحجارة أنا و«ناتاليا» كى لا تمزقه الوحوش .

قصة : خوان رولفو

ترجمة : أبو بكر العيادى

(*) خوان رولفو كاتب مكسيكى ولد عام 1918 وتوفي عام 1985 يعتبر من اشهر
كتاب امريكا اللاتينية رغم قلة انتاجه ، ذلك انه لم ينشر طوال حياته سوى
رواية واحدة عنوانها «بدرى بارامو» وثلاث مجموعات قصصية هى على
التوالى : «السهل المشتعل» و «يوم حدث الزلزال» و «الديك الذهبى»
و «حكايات أخرى» وقد أنهى كتابتها جميعا فى منتصف الستينات .

أرخص ما فى السوق

دينار فى كفه وهو يتعثر وسط السوق المكتظة بالسلع والاوزاخ والبشر •
عينان مبهورتان وريق جاف تحلب فى حلقه من كثرة ما بحلق فيما أمامه من
خيرات سال لها لعبه دون أن يستطيع أن يمد يدا •

زحام وصراخ باعة • نساء ورجال وقفف ملأى وأخرى فارغة • مياه تسيل
أرضا وقمامة مكدسة وهو زائغ البصر يرمق السلع المعروضة بحسرة وانبهار
والقطعة النحاسية فى كفه توقظ مشاعره وتغذى أحلامه •

دفعته عجوز مفرطة السمنة • كاديقع وسط حفرة لولا أنه تمالك باعجوبة
ليمنع جسمه الضئيل من السقوط •

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وقف أمام بائع سمك • تململت الرغبة فى معدته وهو يلوح الاجسام الفضية
النائمة فوق الألواح فى استسلام مفر بعد أن فارقت مياه بحرهما اللزوردية •
سمك كثير بين كبير الحجم وصغير كالسمك الذى يتناوله سيده وأبناؤه كل
يوم أحد ولا يكون نصيبه الا البقايا • أراد ممارسة لعبة السيادة سأل البائع
فى شبه همس :

— بكم السمك يا سيدى ؟

نظرة متعالية تتفرس فى الثياب البالية وصوت فاتر يرد بنبرة مغتصبة :

— الثمن أمامك فقل ماذا تريد ؟

قال ذلك ثم تجاهله ساخرا ليهتم بأحد الوجهاء القادمين • ابتعد مرتبك
الخطي لا عنا نفسه فى سره : وما أفعل بالسمك هل ألتهمه حيا ؟ يا لسخفى •
السمك أكلة الوجهاء فكيف أسأل عن شيء لا يخصنى ؟

دون العشرين عمره . لم يعرف من الدنيا الا بيت سيده . قيل ان أمه ماتت عند ولادته وقد كانت خادمة السيد أيضا . تربى في البيت الشحيح . عاش على الفتات والبقايا . منذ اقتررب من التاسعة ألفت القفة بنفسها عليه . من يومها أصبحت السوق وجهته . السيد يشتري وهو خلفه يتدحرج حاملا القفة . السيد يدفع وهو لا يسعى ولا يفهم ما يدور حوله . ارتفعت الاسعار أم انخفضت قضى الغلاء على البشر أم توصل الناس للقضاء عليه . لم يعرف للنقود معنى ولم يستقر الدينار بكفه الا حين قالت له العجوز ، وهي تجمع حقائبها قاصدة بيت ابنها : خذ هذا الدينار يا ولدى واقصد ربك فالله لا يخيب قاصده تساءل بذل ممزوج ببلاهة فطرية : كيف أجد الطريق الى ربى يا سيدتى ؟

قالت بصوت تائه بين الشفقة والحيرة :

الله فى كل مكان والارزاق بيده . لن يهمل نفسا هو خالقها . مات سيدك الكبير وعلي بالذهاب الى بيت سيدك الصغير وهو له خادمه وليس فى حاجة اليك فاذهب يا ولدى ولتكن فى رعاية الله .

شعر برحيق الحرية ينسكب فى فمه عذبا مثلجا والدينار بكفه يغمره بالدفء والطموح . لكن ما ان تجاوزت خطاه عتبة الباب حتى كشر الضياع عن أنيابه واستعد للعض .

الاسئلة تقتحم فجأة رأسه المستطيلة ومرد المجهول يقف قبالة ماسكا هراوة التشرود والاغتراب . الى أين ؟ العجوز تقول : اقصد ربك وهو لا يعرف الطريق التى توصله الى ربه كي يسأله مكانا يؤويه ولقمة تسد ثغرة جوعه .

قادته قدماه الى السوق . سيحاول اليوم أن يكون سييدا . لن يتبع أحدا بالقفة . الدينار ملكه وسيبتاع به ما يشاء . سيأكل ويتفصح ، بعدها ؟ بعدها سيعرف حتما طريقه الى ربه .

ابتعد مهزوما عن مكان السمك واللحوم . فلتبقي لاصحاب المحافظ المحشوة بالاوراق النقدية والجشع . قصد مكان الغلال . قبل أن تتمزق الاحرف فى حنجرتة وضع الدينار اليتيم فى يد البائع قائلا : - أريد تمرا وبرتقالا وقليل من التفاح .

قهقه الشيخ وهللت التجاعيد فوق الوجه المنكمش ، اخرة :

- تريد كل هذا يا فتى بدينارك المسكين ؟

تساءل بتلك السذاجة التي كادت تقتله يوما على يد ابن السيد المدلل :

- ألا يكفي هذا الدينار يا سيدي ؟

كشر عن اسنان صفراء مهشمة ما تزال بقايا النشوق عالقة بها :

- بل تستطيع شراء كل ما عندي حتى أنا لا أخالني أساوي أكثر من هذا

الدينار في زمن الغبن الذي نعيشه .

قبل أن يتفوه بحرف آخر وينتشله الزحام من هوة بلاهته كان البائع الشيخ قد عاد الى العبوس مقطبا حاجبيه في حركة سخط وتذمر . لف حبات من البرتقال في قرطاس ، وضعها بين يديه بصمت ثم أدار له الظهر بلا مبالاة قاسية .

خلف الحائط ، خارج السوق يجلس القرفصاء يلتهم البرتقالة الاخيرة الباقية بعد أن تناثر ما في القرطاس أرضا وبعثته الاقدام والكهل الاكرش يصطدم به ويواصل طريقه بلا مبالاة دامية .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ضاع الدينار واستقرت البرتقالة الوحيدة في جوفه وها هو السؤال يعود يشكه باستهتار سفاح : كيف يجد ربه ومن يرشده عن طريقه ليسأله مكانا وسيدا . رأسه المستطيلة تجذب الانظار عنوة وأنفه المدبب كمنقار عصور مريض يصرخ جهرا مناديا المتطفلين . انزلت دمعة من مقلة سوداء جميلة بدت كنقطة استفهام في صفحة ملأى برسومات غريبة مشوهة . تجمع حوله بعض الصعاليك سأل أحدهم :

- ما تفعل ايها البائس هل كلفت بحراسة الحائط ؟

قال بذعر حقيقى :

- انى أسأل عن الطريق الذى يوصلني الى ربي . العجوز سيدتي قالت: انه

لا يخيب قاصده حتما سأجد عنده مكانا وسيدا .

بحلقوا فيه دهشة . قهقهوا وانفجرت الشفاه عن التعاليق المتهكمة . قال

كبيرهم ضاحكا وقبضته تستقر بظهر رفيقه :

- ولم لا تكون سيد نفسك ؟ ألا بد من العيش تحت رحمة مغطرس تتبع
أذياله حاملا له القفة ؟

- كيف أكون سيد نفسي وأنا لا أملك غير دينار يتيم ضاع فى حبات برتقال
لم أنعم بها ؟

- اذن ، ابحث عن سيد قبل البحث عن الله . ألم تعلم ايها الساذج ان الله
قد تخلى عن أهالى هذه المدينة المتكالبه على الدينار . وترك الوحوش تتصارع
ياكل كبيرها صغيرها .

تأوه ودمعة أخرى تتبع سابقتها . السؤال اصبح زوبعة بصدره تروم حلا .
الضحكات حوله تواصل مسيرتها العابثة . انطلق أحدهم ليعود بعد لحظات
وبيده ورقة كتب عليها بالخط الاحمر : فتى للبيع . أرخص ما فى السوق .

بدبوس رشقها فوق صدر الفتى الداهل . قال وضحكة خبيثة تركض هاربة
من مضيق الشفتين الغليظتين :

- عد الى السوق . قف هناك ستجد سيديا يقدم لك اللقمة والمأوى لتتبعه
صاغرا حاملا القفة . هبة لن يرفضها أحد . فتى أرخص من رطل لحم .

عاد الى داخل السوق تشيعه الضحكات من كل جانب وتلاحقه النظرات
المتطلعة . عيناه زائغتان تطاردان القفف المלאى بالغلal والخضر . تذكر سيده
وكاديبكى على عهد مضى اكتشف أنه كان خيرا بعد ان فقد نعمته .

اربع عيون ونظرات دهشة ، نهمة تتفحصه . عجوز غزيرة التجاعيد واخرى
فى مقتبل العمر تتوقفان أمامه . ابتسم الامل بقلبه وصهل التفاؤل ليبعث
الحياة فى رفات خموله . ضحكات مقتضبة وهمسات حائرة ورأسان تركتهما
الاصباغ بلا هوية تقتربان تتشاوران فى لؤم داعر . قالت المرأة التى ما زالت
تعتقد أنها شابة ، تفوق صاحبتهما جمالا ونضارة :
- للبيع ايها الفتى ؟

على عجل يجيب :

- وارخص ما فى السوق يا سيدتي . بل مجاناً .

قالت ذات التجاعيد الغزيرة ونظراتها الجائعة تنهل من صفاء العينين
السوداوين :

– هل تعرف كيف تكون رجلا يا فتى ؟

بهت وشحب لونه • سؤال غريب لم يعرف طريق أذنيه قبلا • ما معنى ان
يكون فحلا ؟ لم يسمع بهذه الكلمة يوما فى البيت القديم • عرف أشياء وأشياء
حمل حقيبة سيدته الى الحمام وقام بحراسة الابن المدلل وهو يلعب الكرة فى
الزقاق خلصة ، لكن هذه الكلمة •

التخاذل يحفر هوة تحت قدميه ، كاد يقع لولا الضحكة التى أعادته الى سطح
الارض :

– غرو ساذج سيكون عجيبة طرية بين يديك فاغتنمي الفرصة •

– لكن أين كنت يا فتى وما الذى جاء بك الى هنا ؟

أعاد سرد الاحرف التى حفظها عن ظهر قلب وكررها مائة مرة مذترك البيت
وخرج مدحورا : <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

– سيدتى قالت اقصد ربك وها أنا أنتظر من يحملنى اليه •

ازداد بريق النظرات النهمة وزغردت الضحكة الداعرة غبطة :

– اتبعنى أيها الفتى • ستجد من تبحث عنه عندي • تعال •

فرحة طاغية تفتح له أبواب السعد ارتدى على القفة يحملها بيدين نشطتين
وخضوع عاش للطاعة والانحاء •

لكن ما أمر هذه الكلمة الدخيلة ؟ زفر ثم ابتسم استهانة • التعب يهد قواه
الآن وما هو فى حاجة الى قلق السؤال • حتما مع الايام سيعرف ما معنى ان
يكون رجلا • المهم عاد يحمل القفة • ووجد وجهته •

حياة بن الشيخ

القط تسرق الأرناب ليلا

① أمومة :

• في المساء •

- رأيتها ممدودة على جنبها الايسر ترضع جراءها •
- عيناها - لون العسل - مفتوحتان •
- والجراء الخمسة ترضع الحليب وتتناوش بالمخالب الصغيرة •
- والكلبة ممدودة على جنبها الايسر •
- كلبتنا التي لم تعرف اسما •
- والتي تسبق والدي كل يوم الى الحقل •
- ولا تعود الا في المساء •
- تنبح على الغريب •
- وتفرح بالصديق •
- وتسهر قدام زريبة الحيوانات •
- شتاء السنة وصيفها ...

• في الصباح •

- رأيتها ممدودة على جنبها الايسر ترضع جراءها •
- ورأيت كدسا من الذباب الاخضر يحوم حولها •
- اقتربت منها •
- ورفعت جروا •
- سال الحليب من اشداقه ... وهر ...
- تركته يسقط ، فعاد الى الثدي يمصه •
- وعاد الحليب يسيل من بين أشداقه ...
- وطن الذباب الاخضر
- وخط على الكلبة الميتة ! ...

② رجل من «البلاستيك» :

كنت كلما مررت من شارع «باريس» اراه منتصباً بشموخ فرعون ...
يراقب المارة من وراء «الفترينة» ... يرنو الى الناس بهزء وراء بسمته
الباهتة ...

و كنت فى أيامى الاولى بالعاصمة أمر يومياً من نفس الشارع فأقترب من
«فترينته» وأبقى مدة طويلة أبخلق فى البدلات الفاخرة وربطات العنق الجميلة
التي كان يرتديها ...

ومرت أيام وجاءت أيام أخرى ... كنت ماراً فى شارع «بورقيبة» المزدهم
دائماً بالسيارات والرجال والنساء الجميلات ، عندما رأيته ... كان يتأبط ذراع
امرأة ويسير تحت اشجار الشارع ... عندما تجاوزته ببضع خطوات وقفت
كالمصعوق ! انه هو ... رجل «البلاستيك» ... رجل «البلاستيك» الذى
كنت أمر أمامه كل صباح وهو يعرض البدلات الثمينة من وراء «فترينة»
المغازة .

كذبت نفسى وقلت : «يخلق من الشبه اربعين !» وواصلت طريقي ...
الا أنني اكتشفت وأنا اقترب من الحافلة التي تقلني يومياً الى الضاحية الجنوبية
اننى أعرف أيضاً المرأة التي كانت تسير بجانب رجل «البلاستيك» ! ...
انها عاملة فى تلك «المغازة» ! رأيته عدة مرات ترفع المقشة وتنفض الغبار من
على شعر وثياب الرجل ... لحقت بهما من جديد لكنهما ضاعا وسط زحام
الشوارع ...

اقرأ هذا الخبر :

- شاب
- زين الشباب أنا
- أتمتع بصحة جيدة
- خال من الامراض المعدية
- لا أسكر
- لا أدخن

العمر : ثلاثون سنة ونيفاً .
 المهنة : عامل بدون عمل !
 الموضوع : أرغب فى نشر اعلانى هذا والمتمثل فى أننى أعرض على الراغبين
 فى الشراء قطع الغيار التالية :

- عين اليمنى . طاقة النظر بها عشرة على عشرة .
- كليتان . اترك الخيار للشارى .
- قلب . لا تتجاوز دقاته فى حالات الخوف الشديد سبعين دقة فى الدقيقة !
- دم . نوع الفصيلة «ب» ايجابى .
- عظام . للايدى والارجل والعمود الفقرى والجمجمة والقفص الصدرى .
- جلد . لتجميل الاعضاء المصابة بحروق شديدة .
- وغيرها ...

ملاحظة : المطلوب من السادة المشترين الاتصال بالجريدة لمدهم بالعنوان
 الكامل وبجميع الارشادات .

فى صباح الغد خطرت ببالى فكرة عندما كنت ماراً أمام «البوتيك» . دفعت
 الباب الزجاجى الكبير فلفحنى هواء بارد منعش . تلفت داخل الدكان كمن
 يبحث عن شئ فقده ... الى أن صفعتنى المفاجأة ... رأيتها ... صاحبة
 الرجل «البلاستيكى» تمشى داخل الدكان ...

كانت تلبس نفس فستان البارحة .

قلت لها :

- من فضلك ! لحظة !

- نعم ! أنا فى خدمتك .

- أريد شراء البذلة المعروضة فى «الفترينة» .

- انها للعرض فقط ! عندنا بذل أخرى مثلها . تعال معى !

وسرت وراءها . ذهبت الى الخزانة . أخرجت منها بذلة تشبه البذلة
 المعروضة .

قلت لها :

لا ! أريد تلك المعروضة فى «الفتريئة» • أريد البذلة الزرقاء •

قالت :

«لا ! لا يمكن الآن ! عد فى المساء»

كنا نتحدث سويا عندما اقتربنا من «الفتريئة» • رأيت صاحبى واقفا •
دراعه ممدودة وبسمته الساخرة تستفز المارة • فتحت العاملة النافذة ونشت
بحركة آلية غبارا لا يوجد • ثم مسكت اللافتة الصغيرة الحاملة لثمن البذلة
وقالت برطانة : «ميتين ديناغ !»

تشاغللت بالنظر الى معروضات أخرى •

عندما التفت سمعته يهمس لها :

«هل قرأت الاعلان الذى نشرته أمس بجريدة «المساء» !»

لم ترد عليه •

همس من جديد :

«لقد تعبت من الوقوف داخل «الفتريئة» !»

خرجت من الدكان وأنا لا أكاد أصدق أذنى :

رجل من لحم ودم داخل قفص الزجاج !

وعندما وصلت قرب «الفتريئة» ضربت زجاجها بسبابتى •

رمشت جفون رجل «البلاستيك» •

ثم وبحركة ميكانيكية وضع اصبعه أمام فمه وصفر : أشششت ...

③ دم أبى :

سقطت السلة من يد الطفل •

سقط قلب الطفل فوق الاسفلت •

سقطت السلة •

سلة بها أربع قوارير خضراء •

- جرى السائل الاصفر فوق الاسفلت
- وقف الطفل لحظة مرعوبا ثم وقع على ركبتيه يجمع زجاج القوارير
- تكثفت فوق السائل الاصفر رغوة بيضاء
- وقع عليها الذباب
- بنى الطفل سدا من التراب
- جمع وراءه السائل الاصفر
- وقع الطفل على زنديه
- لتذكيركم : - زنداه نحيلان - نحيلان جدا
- وقع الطفل على زنديه يجمع زجاج القوارير
- يركبه فوق بعضه
- يحاول صنع قوارير جديدة
- لم لا يحاول ؟
- جرى دمه
- جرى دمه فوق الاسفلت
- بنى سدا آخر بكف يده اليمنى
- ثم اليسرى
- ثم اليمنى
- ثم اليسرى
- ثم الاثنتين ...
- قام الطفل على ركبتيه
- نادى :

«أعطوني (لم يدر ماذا يطلب !) أجمع فيه دم أبى • ودمى ...»

④ الققط تسرق الارانب ليلا •

- أحس بخطاه خفيفة فوق السطح • وأرى ظله مستطيلا على جدار البيت المقابل • أقوم اليه شاهرا فى وجهه حجرا وسبابا وعينا يقظة •

يستقبلنى على حافة الجدار ...

يموء ليستفزنى ...

ويغادر المكان ...

(يقول : سأعود عندما تنام !)

أرمى وراءه حجرا وأذهب أتفقد بيت الارانب ...

عندما أسمع الصرخة • أقفز من فوق السرير وأندفع خارج البيت حافى القدمين •

يطعننى هواء الليل البارد طعنة واحدة

وتطعننى استغاثة الارنب طعنتين •

وأرى ظل القط مستطيلا على جدار الجيران •

يقف لحظة •

ينظر نحوى واثقا ويقول :

(أما قلت لك : سأعود عندما تنام !)

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وأعود الى البيت •

أشعل النار فى الفانوس المعلق فى السقف •

وأفتح النافذة •

وأشحن سكينى على حافة الشباك •

وأطعن جرحى المندمل بالسكين •

وأكتب بالدم على حافة الشباك :

«القط تسرق الارانب ليلا !»

أليس كذلك ؟

ابراهيم درغوثى

(أم العرائس - تونس)